المبحث الثالث:

الحملة الصليبية الثالثة ووفاة صلاح الدين

أولاً: الصليبيون يستغيثون بالغرب:

ما كاد القتال ينتهي في حطين وتتحقق خسارة الصليبيين حتى أسرعت الرسل إلى غرب أوروبا لإعلام ملوك أوروبا وأمرائها بما آلت إليه أوضاع الصليبيين في الشرق، ولم يلبث أن اقتفى أثرهم رسل آخرون عقب فتح بيت المقدس، والواقع أن تلك الخسارة وهذا الفتح أحدث رد فعل عنيف في المجتمع الغربي الذي ذعر لنبأ الكارثتين، واعتقد النصارى في الغرب بأنها جاءتا نتيجة إهمالهم في عدم الاستجابة للاستغاثات المتكررة التي جاءت من مملكة بيت المقدس في السَّنوات الأخيرة وأدرك من اجتمع في مدينة صور من الصليبيين أنه مالم تصلهم نجدة من الغرب، فإن فرص الاحتفاظ بصور ستتضاءل بعد أن ضاع كل أمل في استعادة المناطق التي فقدوها ولم يلبث كونراد دي مونتفيرات أن أرسل جوسياس، رئيس أساقفة صور، إلى غرب أوروبا في منتصف عام 583هـ وآخر صيف عام 1187م، ليطلب من البابا وملوك أوروبا وأمرائها النجدة العاجلة، وصل جوسياس إلى صقلية، واجتمع بملكها وليم الثاني الذي استجاب لهذه الدعوة بعدما راعه ما سمعه من جوسياس من أنباء الكارثة التي حلتَّ بالصليبيين في الشرق، ولما كان في حالة حرب مع بيزنطية فقد عقد صلحاً مع الإمبراطور البيزنطي، إسحاق أنجيلوس في في شهر محرم 584هـ/شهر آذار عام 1188م ليتفرغ للقضية الصليبية، ثم أرسل أسطولاً يحمل بضع مئات من الفرسان، إلى طرابلس بقيادة أمير البحر الصقلي مرجريت البرنديزي وقد نجح في منع صلاح الدين من فتح طرابلس [1].

ثم انتقل جوسياس من صقلية إلى روما ترافقه بعثة صقلية ليشرح للبابا أوربان الثالث حقيقة وضع الصليبيين في بلاد الشام فلم يتحمل البابا الصدمة وتوفي كمداً في 14 شعبان 583هـ تشرين الأول 1187م على أن خليفته جريجوري الثامن بادر على الفور بالاتصال بملكي إنكلتر وفرنسا وإمبراطور ألمانيا يستحثهم على أن يتناسوا ما بينهم من خلافات، ويعبئوا قواهم لمحاربة المسلمين وإذا كان البابا جريجوري الثامن قد توفي هو الآخر في 13شوال/17 كانون الأول، قبل أن يرى ثمرة جهوده، فإن خليفته كليمنت الثالث (583هـ - 587هـ/1187 - 1191م أسرع بالاتصال بالإمبراطور الألماني فريد

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة ص 176.

ريك الأول بربروسا وأقنعه بالاشتراك في حملة صليبية تتجه إلى الشرق، وحدث هذا في الوقت الذي انتقل فيه جوسياس إلى الغرب لمقابلة ملكي فرنسا وإنكلترا فيليب أغسطس وهنري الثاني، واجتمع بهما في جيزورز على الحدود بين نورمنديا وفرنسا وأقنعهما بتناسي خلافاتهما التي كانت حادة وشجَّعهما على عقد الصلح والاشتراك معاً في حملة صليبية، ومع ذلك، فإنهما تباطأ في التنفيذ، وتجدّدت الحرب بينهما، ثم توفي هنري الثاني ملك إنكلتر في عام 585هـ/1189م وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد دوق بواتو، فعقد صلحاً مع الملك الفرنسي، وتجهز للقيام معه بحملة مشتركة إلى الشرق [1].

ويتضح دور رجال الدين المسيحي في الأزمات من خلال ما قام به جوسياس والبابا، وهنا نستخلص درس مهم وهو على العلماء والفقهاء والدعاة والمفكرين والأدباء والساسة من أمتنا تجاوز مرحلة الشعور بالحسرة والحوقلة في الملمات والنكبات التي تمر بها الأمة والسعي الدؤوب للعمل الصحيح الذي يحبه الله ورسوله من توظيف المهارات القيادية والقدرة على الإقناع وحسن التخطيط وتقديم رؤية حضارية نهضوية... إلخ من أجل إعزاز دين الله تعالى والتصدي للغزاة.

قدم الصليبيون إلى بلاد الشام بأعداد كبيرة لا تحصى يدلنا على ذلك الرسالة التي بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد في سنة 586هـ/1190م يخبره بذلك والتي قال فيها: وقد بلى الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبين والأوطان وهجروا المألوفين والأهل والديار، وركبوا للحج ووهبوا المهج، كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم [2]. وخرج المسيحيون على اختلاف فئاتهم وأجناسهم ومن عجز عن الخروج بنفسه جهز بعدته وثروته من يقدر على السفر [3] وخرجت النساء الإسهام في الحملة الصليبية الثالثة، فمنهن من خرجن وبصحبتهن الفرسان وقد تكفلن بجميع ما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد، وعلى سبيل المثال ذكر أبو شامة وغيره أنه في سنة 585هـ/1189م وصل في البحر إلى بلاد الشام امرأة مسيحية جليلة القدر وفي صحبتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم، وقد تكفلت بكل ما يحتاجون إليه، فهم يركبون لركوبهم، ويحملون لحملاتها ويثبون لوثباتها [4]. ومنهن من خرج وقد لبسن الدروع وكن في زي الرجال للاشتراك في المعارك بأنفسهن

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 176.
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 176.
(3) كتاب الروضتين (161/2، 162)، صلاح الدين والصليبيون ص238.
(4) مفرج الكروب (308/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 238.

لاعتقادهن أن عملهن ذلك عبادة [1]، ومنهن من خرج لإسعاف الغرباء وإسعاد الصليبيين بتسبيل أنفسهن لهم للاستمتاع بهن حتى ولا يتسرب الملل إلى نفوس المحاربين [2]، وأما وليم الثاني ملك صقلية فقد بادر بإرسال أسطول في سنة 585هـ/1189م يشتمل على ستين قطعة بها عشرة آلاف مقاتل أسند الأسطول إلى مدينة صور ثم رجع إلى طرابلس ولم ينفع الصليبيين بشيء لأن ما به من الميرة لم تكن تكفي ما عليه من الرجال [3].

ثانياً: الإمبراطور الألماني في طريقه إلى الشرق:

تناسى ملوك وحكام الغرب الأوروبي ما بينهم من خلافات وحزازات وأحقاد وعقدوا العزم استجابة لدعوة البابا على تسيير حملة صليبية إلى بلاد الشام، وكان أول من استجاب لهذه الدعوة فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا [4]. ففي ربيع سنة 585هـ/1189 بدأت الجيوش الألمانية في التجمع عند مدينة راتسبون استعداداً للمسير إلى بلاد الشام وكان ذلك الجيش بالرغم من كثرته العددية يتمتع بنظام عسكري دقيق، فكان من يجري منه جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح "مثل الشاة "[5]، وسار ذلك الجيش يتقدمه الإمبراطور فردريك بربروسا وبصحبته أحد أبنائه سالكاً الطريق البري باتجاه القسطنطينية، حتى واجه عداء شديداً من الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجليوس الذي بعث إلى حليفه صلاح الدين يخبره بمسيرة الألمان ويعد بأن لا يمكنهم من عبور بلاده، إلا أن المصادر تذكر أن الإمبراطور البيزنطي لم يستطع منعهم من العبور، ولكنه لم يسعفهم بشيء من المؤن والعتاد، فقلت عليهم الأقوات، وعبروا خليج القسطنطينية "البسفور" وقد اشتدت ضائقتهم وحل بهم كرب شديد [6] ولما عبروا إلى آسيا الصغرى تعرضوا لمتاعب كثيرة بسبب جهلهم بتلك الأماكن لذا سلكوا الأودية على غير هدي، فكانوا يقطعون الفرسخ الواحد في يومين، فوقعوا فريسة للخطف من جانب التركمان سكان المناطق، كما كان لدخول الشتاء أثره البالغ على سيرهم، حيث تراكمت الثلوج، فاحتاجوا إلى أكل الدواب وأحرقوا عددهم لنقص الحطب عندهم، كما عدموا

(1) كتاب الروضتين (149/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 238.
(2) المصدر نفسه (149/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 238.
(3) مفرج الكروب (558/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 239.
(4) صلاح الدين والصليبيون ص 240.
(5) النوادر السلطانية ص 126، صلاح الدين والصليبيون ص 240.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 241.

العلف فأنهكوا وأنهكت دوابهم حتى عجزوا عن حمل عددهم، فاضطروا إلى دفن ما عجزوا عن حمله [1]، ولما قاربوا الوصول إلى سلطنة سلاجقة الروم التي كان على رأسها السلطان قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي، نهض إليهم ابنه قطب الدين ملكشاه، واشتبك معهم في معركة كبيرة هزموه فيها، فتراجع إلى الوراء إلى مدينة قونية عاصمة السلطنة، فتعقبه الألمان، ودخلوا المدينة وأحرقوا أسواقها، ثم أرسلوا إلى والده أرسلان يقولون له: إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما نزلنا لنثأر لبيت المقدس [2]، وبعثوا إليه الهدايا وطلبوا منه الهدنة فهادنهم، فبعث هو وابنه إلى صلاح الدين يعتذران من تمكين الألمان في بلدهما ويخبرانه بأنهما غلبوا على ذلك. ومكث الجيش الألماني مدة من الزمن في بلاد قليج وتقووا خلالها بما أرادوا من العدد والأزواد ثم واصلوا سيرهم [3]، وأشار ابن شداد وأبو شامة إلى روابط الصداقة بين السلطان قليج أرسلان والإمبراطور فردريك بربروسا، وأن قليج عندما أرسل إلى صلاح الدين يعتذر عن عبور ملك الألمان في بلاده، إنما قصد بذلك التظاهر أمام صلاح الدين بالشقاق لملك الألمان، وهو في الباطن يضمر له الوفاق وأنه أنفذ معه الأدلاء وأعطاه الرهائن حتى يضمن له العبور بسلام [4].

هذا بينما يذكر ابن الأثير أن أسباباً دفعت الملك قليج أرسلان على السماح لملك الألمان بعبور أراضيه، منها حالة الضعف التي كانت تتعرض لها بلاده بسبب المشاكل الداخلية نتيجة تقسيمه ملكه بين أبنائه [5]. يضاف إلى ذلك ما كان يتعرض له قليج أرسلان من ضغط بسبب التحالف بين خصميه صلاح الدين من ناحية والإمبراطور البيزنطي من ناحية أخرى[6] وعلى كل فتلك التسهيلات التي منحها قليج للإمبراطور فردريك بربروسا لم تنفع الجيوش الألمانية بشيء إذا تعرضت أثناء عبورها لبلاده لهجمات عديدة. الأمر الذي أغضب ملك الألمان فقبض على الأدلاء والرهائن الذين سيرهم قليج معه وقيدهم بعد أن أخذ ما معهم ووضعهم في الأسر[7].

1 - دخول الألمان بلاد الأرمن:

(1) مفرج الكروب (318/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 241.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 242.
(3) المصدر نفسه ص 242.
(4) النوادر السلطانية ص 123.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 242.
(6) الحركة الصليبية (847/2) سعيد عاشور.
(7) مفرج الكروب (319/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 243.

واصل الألمان سيرهم رغم تلك المتاعب الشديدة التي تعرضوا لها، حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن، فرحب بهم أميرها ابن لاون، وقدم لهم ما يحتاجون إليه من المؤن والأزواد والعلوفات وأرشدهم إلى أسهل الطرق [1] وكان أمير أرمينية يأمل في أن يتوج ملكاً على أرمينية الصغرى حتى لا يبدو في مكانة أقل من مكانة الأمراء الصليبيين المقيمين ببلاد الشام من جهة، وليبعد عنه أطماع الإمبراطور البيزنطي من جهة أخرى، ويبدو أن أمير أرمينية قد علق آمالاً كبيرة على كل من البابا والإمبراطور الألماني في تحقيق هدفه هذا [2].

2 - وفاة أمبراطور الألمان:

لم يطل مقام الألمان ببلاد ابن لاون بل واصلوا سيرهم بعد أن هداهم الطريق، ونزلوا بطرسوس [3]، وقد أنهكهم السفر بسبب ما تعرضوا له من متاعب في طريقهم، فأرادوا الإقامة هناك أياماً ليريحوا أنفسهم إلا أن القدر خبأ لهم خلاف ذلك، فحدث لهم حدث مفاجئ قلب الموازين رأساً على عقب، حيث مات الإمبراطور فردريك بربروسا غريقاً في أحد الأنهار وذلك سنة 586هـ/10يونيه 1190م واختلفت آراء المؤرخين في تعليل أسباب وفاته، فذكر العماد وابن واصل أن الألمان عندما عبروا نهر سالف التطم الموج بهم، فطلب الملك موضعاً يعبر فيه وحده، فدخل في مخاضة قوية فاختطفه تيار الماء واصطدم بشجرة شجب رأسه، فاستخرجوه وهو في آخر رمق وهلك بعد قليل [4].

وأشار ابن شداد وغيره إلى أن فردريك بربروسا نزل على شط أحد الأنهار، واستحم في ماء ذلك النهر، فأصابته برودة ذلك الماء بمرض مات على أثره بعد أيام قلائل [5]. أما ابن الأثير، فقد ذكر أن فردريك دخل النهر يريد الاغتسال فغرق [6] ومهما يكن من أمر، فإن الذي يهمنا هو أن الإمبراطور فردريك بربروسا قد هلك دون أن يحقق هدفه في المشاركة في استعادة بيت المقدس من يد صلاح الدين، فضلاً عن أن ذلك الحدث المفاجئ كان له أثر كبير على فشل الحملة الصليبية الثالثة، إذ أن جزءاً كبيراً من الجيش الألماني قد عاد عقب وفاته إلى أوروبا[7]. بالإضافة إلى أن الصليبيين

(1) مفرج الكروب (319/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 243.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 243.
(3) المصدر نفسه ص 243.
(4) مفرج الكروب (319/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 244.
(5) كتاب الروضتين (155/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 244.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 244.
(7) المصدر نفسه ص 244.

قد فقدوا بوفاته شخصية كبيرة مخلصة للمشروع الصليبي لو أنها وصلت إلى عكا لوجد منها صلاح الدين متاعب كثيرة [1].

3 - تفرق الألمان بعد موت ملكهم:

وبموت الإمبراطور فردريك بربروسا حلت بالألمان كوارث كثيرة فقد اختلفوا منذ البداية حول من يخلفه في قيادة الحملة الصليبية الألمانية، حيث مال بعضهم إلى تولية ابنه فردريك السوابي، بينما مال بعضهم إلى تولية أخ لفردريك السوابي أكبر منه [2]، وما أن رأى الملك الأرمني ما حل بالألمان من التفكك والضعف بعد موت فردريك بربروساً حتى آثر أن لا يلقي بنفسه بينهم، فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر وهم أفرنج، وهو أرمني فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة [3].

وتفرق الألمان بعد موت ملكهم فمنهم من عاد إلى أوروبا، ومنهم من سار مع الأمير فردريك السوابي الذي خلف والده في قيادة الجيش الألماني، وعند مسير بقايا الحملة إلى أنطاكية حل بهم وباء شديد ذهب ضحيته كثير من رجالهم ووصلت البقية الباقية إلى أنطاكية؛ وكأنهم قد نبشوا من القبور على حد قول المؤرخ ابن الأثير [4]. وما إن وصل الألمان إلى أنطاكية حتى تبرم بهم صاحبها بوهيمند الثالث وثقلت وطأته عليهم، وطمع في الاستيلاء على أموالهم وعتادهم، فأشار عليهم بالمسير إلى حلب وحسن لهم طريقها. إلا أن فردريك السوابي لم يستجب لمشورة بوهيمند وإنما طلب منه أن يعطيه قلعة أنطاكية ليودع بها ماله وخزائنه وأثقاله فوافق بوهيمند على ذلك على أمل أن يفوز بما يودع فيها من الأموال والعتاد وكان الأمر على ما أراد، فإن الألمان لما فارقوا أنطاكية لم يعودوا إليها ثانية، ففاز بوهيمند بكل ما أودعوه فيها [5].

وفي الوقت نفسه تعرضت فرقة من الألمان لكارثة أخرى كان لها أثر كبير في إضعاف نفسياتهم فقد اتجهت هذه الفرقة الألمانية صوب بغراس وهم يظنون أنها لا تزال في أيدي إخوانهم الصليبيين، وما أن وصلوا إليها حتى فتحت أبواب القلعة وهجم المسلمون على الألمان فاستولوا على ما معهم من الأموال والأسلحة والعتاد، وقتلوا منهم وأسروا العدد الكثير، كما خرج أيضاً بعض سكان حلب وتفرقوا في طريق الألمان

---

(1) التاريخ الحربي المصري ص 239.
(2) تاريخ ابن خلدون (322/5)، صلاح الدين والصليبيون ص 244.
(3) النوادر السلطانية ص 124، صلاح الدين والصليبيون ص 244.
(4) كتاب الروضتين (156/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 245.
(5) مفرج الكروب (322/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 245.

وأخذوا يتخطفونهم، فأسروا منهم أعداداً باعوهم في الأسواق بأثمان زهيدة [1]، كما أن ذلك يدلنا أيضاً على مدى تلك العزلة التامة التي فرضها صلاح الدين على الصليبيين ببلاد الشام، بعد إحكام سيطرته على مدن الساحل، حتى أن الصليبيين في الغرب الأوروبي لم يكن في مقدورهم التمييز بين المدن والقلاع التي استولى عليها صلاح الدين وبين التي لا تزال في أيدي إخوانهم الصليبيين في الشرق [2]، وأخيراً قرر فردريك السوابي بعد تلك الكوارث التي حلت لجيشه الاتجاه إلى عكا ففي يوم الأربعاء 25رجب سنة 586هـ/أغسطس 1190م سار على رأس جيشه إلى عكا عن طريق جبلة واللاذقية، وانتهز المسلمون في اللاذقية فرصة مرور شراذم الألمان، فخرج رجالها عليهم، فقتلوا وأسروا منهم أعداداً كثيرة، ولما وصل الألمان إلى طرابلس أقاموا بها للراحة، فنزل بهم وباء شديد مات على أثره أكثرهم ولم يبق منهم سوى حوالي ألف رجل ركبوا في البحر يتقدمهم فردريك السوابي قاصدين عكا للانضمام إلى بني جنسهم هناك لمؤازرتهم في حصارها، فوصلوا إلى عكا في 16 رمضان سنة 586هـ/أكتوبر 1190م[3].

4 - موقف صلاح الدين من الحملة الألمانية:

لم يهمل صلاح الدين أمر الحملة الألمانية منذ علمه بمسيرها إليه، فقد استنفر الناس للجهاد، فبعث رسولا في رمضان من سنة 585هـ/1189م من قبله وهو القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسي في ذلك الوقت الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء لإعلامه بمسير الألمان إلى بلاد الشام وأمر صلاح الدين القاضي ابن شداد بالمسير في طريقه إلى أمراء الموصل وسنجار والجزيرة وإربل لاستدعائهم للجهاد، فأجابوا إلى ذلك وتأهبوا للمسير إلى صلاح الدين، كما وعد الخليفة العباسي "بكل جميل" وأمد صلاح الدين بالمال والعتاد [4]، وتابع صلاح الدين في الوقت نفسه تقدم الألمان إليه عن طريق إرسال العيون - الجواسيس - لكشف أخبارهم، كما أرسل نوابه في البلاد الشامية عساكرهم لكشف أخبار العدو واعتراضه طريقه، فوقعوا على فرقة من جيش الألمان، قد خرجت لطلب العلوفة للدواب فقتلوا وأسروا منهم زهاء خمسمائة نفس [5].

---

(1) مفرج الكروب (323/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 245.
(2) تاريخ ابن الفرات نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 246.
(3) المصدر نفسه.
(4) النوادر السلطانية ص 115، صلاح الدين والصليبيون ص 247.
(5) مفرج الكروب (323/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 247.

ولما تحقق صلاح الدين من وصول الألمان إلى بلاد الأرمن وقربهم من البلاد الإسلامية، جمع أمراء دولته وشاورهم فيما يصنع، فاتفق رأيهم على تسيير عسكر كبير لملاقاة العدو في طريقه وحماية بعض المدن، فسارت تلك الجموع الإسلامية يتقدمها عدد من أمراء المسلمين، فكبدت العدو الألماني في طريقه خسائر جسيمة [1]. كما أمر صلاح الدين بهدم أسوار طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل وذلك لأنه خشي سيطرة الصليبيين عليها واستخدم تلك الأسوار في محاربة المسلمين [2]، والحقيقة أن حملة الألمان الصليبية فشلت عندما غرق قائدها الإمبراطور فردريك بربروسا في أحد أنهار آسيا الصغرى، وتشتت جموع الألمان في الشام مما حال دون وصولهم إلى بيت المقدس، وتحقيق هدفهم باسترجاعه من أيدي المسلمين، وأخيراً فإذا كان فردريك بربروسا قد عجل الخروج إلى المشرق على رأس حملته الصليبية، واختار لها الطريق البري إلى بلاد الشام فإن فيليب أوغسطس فرنس، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا لم يتركا الغرب الأوروبي في حملة صليبية إلا في صيف 586هـ/1190م واختارا الذهاب إلى عكا بحراً [3].

ثالثاً: الصليبيون يحاصرون عكا:

كان الفرنج المتجمعون في صور قد وردتهم الكثير من الإمدادات من الرجال والسلاح وأهم من ذلك وصلتهم الوعود البابوية بأن ملوك أوروبا قادمون لنجدتهم وهذا ما جعل مقاومتهم أشد ضراوة وعنفاً لصلاح الدين حين عاد إليهم وفيما كانت أوروبا كلها تضطرب حماسة للهجوم على المشرق واسترجاع القدس كان صلاح الدين يحاول فتح صور، وكان روح المقاومة فيها هو الكونت كونراد دي منتفرات الطامع بعرش المملكة، ولهذا لم يقبل أن يسمح لجاي لوزينان ملك القدس حين أطلقه صلاح الدين من الأسر أن يدخل المدينة، فبقي ستة أشهر في نواحي طرابلس بمعسكر بعيد عنها يجمع بعض القوى حوله ليقف بوجه الزعيم الجديد مونتفرات، ثم اصطلح الاثنان على الاشتراك في قتال صلاح الدين وترك مسألة القرار بالعرش للبابوية وملوك أوروبا القادمين، وهكذا قرروا الخروج من صور التي ضاقت بهم لحصار عكا، وكان صلاح الدين قد عهد بإعادة تحصين عكا وتزويدها بالسلاح والمؤن إلى خادمه بهاء الدين قراقوش، الذي جعلها مع قلعتها وسورها تحفة معمارية منيعة وجلب بأمر صلاح الدين

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 247.
(2) المصدر نفسه ص 247.
(3) المصدر نفسه ص 248.

- المقاتلة إليها، والأسطول من مصر إلى مينائها. وقد خرج الفرنج في رجب سنة 585هـ/أغسطس سنة 1189م وسارت مراكبهم معهم بحذائهم في البحر، ولم يؤخذ صلاح الدين على غرة بمقصدهم إلى عكا، فقد كان اليزك - الطلائع والحرس - التي تركها عند صور قد نبهت حامية عكا لتكون على استعداد ونزل الفرنج على عكا من البر والبحر يحاصرونها بأعداد كبيرة في رجب سنة 585هـ/أغسطس 1189م وكان رأي صلاح الدين مقاتلة الفرنجة أثناء تحركهم نحو عكا، لأنهم إن وصلوا إليها لصقوا بأرضها، ولكن قواده لم يرضوا قتالهم إلا إذا وصلوا إلى عكا بحجة أن الطريق التي سلكها الفرنجة وعرة وضيقة ولا يسهل قتالهم فيها، للإجهاز عليهم دفعة واحدة، ورغم ذلك رتب صلاح الدين للفرنجة كمائن على شكل عصابات من البدو تتخطفهم أثناء سيرهم، لكنهم تابعوا المسير حتى عسكروا أمامها من البر والبحر وانقطع اتصال الجيش الإسلامي بها وكان صلاح الدين قد كتب يستدعي عسكره المتفرق أمام أنطاكية وطرابلس وصور وعلى سواحل مصر في الإسكندرية ودمياط مع أخيه العادل فجاءه منهم الأعداد الغفيرة ثم جاء جند الشام والجزيرة وطوَّق بهذا الجند الطوق الفرنجي لعكا؛ فكان الفرنج بين حامية المدينة وبين الجند الصلاحي [1].

يقول العماد: وتبين لنا بالعاقبة أن الرأي السلطاني كان أصوب فإنَّ نزالهم عند نزولهم صار أصعب، وقد نزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر. وقامت المعارك سجالاً مع الفرنج كل يوم، وقد كانت تحتدم في بعض الأيام احتداماً كبيراً ومن أهم المعارك تلك التي أراد المسلمون فيها إدخال المدد من الرجال والعتاد إلى عكا، فحملوا على الفرنج حتى أزاحوهم عن الأسوار وأدخلوا بعض الأمراء وأعداد كبيرة من الجيوش القادمة من مصر إليها تشد أزرها، وبالمقابل قام الفرنجة قبل وصول بقية الإمداد من مصر بهجمة على المسلمين هزموهم في أولها حتى وصلوا إلى خيام الملك العادل وإلى خيمة صلاح الدين وقتلوا من حولها، ولكن السلطان صاح في عسكره يا للإسلام وكرّ معهم على الفرنج الذين هُزموا وتناولتهم حامية عكا بالسهام من خلفهم فتشتتوا متراجعين، ويؤكد العماد الأصفهاني أن قتلاهم في تلك الوقعة كانوا بالألوف وقد عُرفت هذه الوقعة بالوقعة الكبرى [2].

1 - العلماء الذين شهدوا الوقعة:

(1) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 285.
(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 286.

كان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يتولى مقدمة القلب في جيش صلاح الدين[1]، كما كان القاضي بهاء الدين بن شداد والفقيه العماد الأصفهاني مشاركين أيضاً في هذه المعركة، وقاما بوصفها وصفاً دقيقاً كشاهدي عيان لها [2]، دون أن يوضحا دورهما في المعركة وكان النصر حليف المسلمين في نهاية هذه المعركة وتكبد الصليبيون خسائر فادحة في الأرواح قدرت بعشرة آلاف قتيل [3] وقد استشهد في هذه المعركة، الفقيه ظهير الدين الهكاري أخو الفقيه عيسى الهكاري، وكان والياً على بيت المقدس، وقد جمع بين الشجاعة والعلم والدين [4]، وعندما علم الفقيه عيسى الهكاري بنبأ استشهاده أنكر عزاء الناس له قائلاً: هذا يوم الهناء، لا يوم العزاء [5]، كما استشهد أيضاً في هذه المعركة الفقيه أبو علي ابن رواحة، عند خيمة صلاح الدين مع جماعة، ويبدو أنه كان ممن يدافعون عن خيمة صلاح الدين حينما اندفع جماعة من الصليبيون إلى الخيمة يريدون الفتك بالسلطان [6] وكان ضمن القضاة الذين شاركوا في القتال ضد الصليبيين المحاصرين لعكا في سنة 586هـ/1192م القاضي المرتضى بن قريش، فكانت له مواقف عديدة في مشاركة المسلمين محاولاتهم في فك الحصار الذي ضربه الصليبيون على عكا، ولكنه اشتهد في يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة 586هـ/1190م [7].

2 - الأثر المعنوي للعلماء على المقاتلين:

لم يكن دور الفقهاء أثناء حصار الصليبيون لعكا في الحملة الصليبية الثالثة يقتصر على حمل السلاح ومقاتلة الصليبيين لدفعهم عن عكا، وإنما كانوا يطوفون داخل المعسكر الإسلامي بين الجند يبثون الشجاعة في نفوسهم، فالقراء يقرأون القرآن ويحذرون الجند من الفرار ويذكرونهم بما أعده الله تعالى للشهداء في الجنة من جزاء عظيم، ويستشهدون في ذلك بآيات الله الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، ليرفعوا من روحهم المعنوية ويزيدون من تصميمهم ومصابرتهم في الجهاد، وذلك شأن كل المعارك والفتوح التي كان صلاح الدين يخوضها، وكان للقاضي بهاء الدين بن شداد دور عظيم

(1) مفرج الكروب (296/2).
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 163.
(3) البداية والنهاية نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 163.
(4) دور الفقهاء والعلماء ص 164.
(5) المصدر نفسه ص 164.
(6) المصدر نفسه ص 164، النوادر السلطانية ص 164.
(7) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 167.

في هذا الشأن، فعندما بلغت صلاح الدين الأخبار بخروج الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا بجيوشه إلى بلاد الشرق لنجدة الصليبيين بالشام، واشتد ذلك عليه ورأى حث الناس للجهاد وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة [1] فعهد إلى القاضي بهاء الدين بن شداد بالمسير للخليفة العباسي الإمام الناصر أبو العباس أحمد، وإلى كافة الأمراء الحكام حتى يقوم الخليفة بدوره في حث وتحريض المسلمين في مختلف الأقطار والبلاد للنفير للجهاد ومساعدة المسلمين بالشام، ويقول ابن شداد: فاستدعاني لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير إلى بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة. وكان مسيري في ذلك المعنى في الحادي عشر من رمضان، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا بنفوسهم...، بكل جميل، وعدت إلى خدمته رحمه الله وكان وصولي يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير، فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً [2].

ونلاحظ قدرة صلاح الدين على متابعة حركة الأعداء والحصول على المعلومات الدقيقة عنهم فأسعفهم الوقت للإعداد والتجهيز والاستنفار العام. ولعلنا نستنتج مما ذكره ابن شداد أهمية وخطورة المهمة التي كلف بها إلى بغداد، خاصة في تلك الظروف العصيبة والصليبيون يهددون عكا تهديداً شديداً وتكاد أن تقع في أيديهم لذلك عرض صلاح الدين على الخليفة الحضور بشخصه لتحميس المسلمين، على أن يتنازل له عن جميع بلاده [3] ولكن الخليفة لم يكن متحمساً للانتقال من قصوره ليعيش في ميادين القتال فلم يرد على دعوة صلاح الدين واكتفى بأن أرسل إليه عدة أحمال من النفط وتوقيع بمال له عند بعض التجار، مما جعل صلاح الدين يستاء من تصرفه [4]، وكان من المفروض على الخليفة أن يقود الصراع مع الصليبيين رغبة في الجهاد بنفسه وماله في سبيل الله، ومحاولة منه لإعادة دور منصب الخلافة في واقع الأمة، مما يترتب عليه من أثر معنوي على المجاهدين كما أنه حافز كبير لكل المسلمين للمشاركة في الحملة ضد الغزو الصليبي الكبير، ومما يسجل لصلاح الدين عظمة نفسه المترفعة عن الدنيا والمطامع حيث عرض على الخليفة التنازل

(1) كتاب الروضتين (150/2، 151).
(2) النوادر السلطانية ص 98، 99، دور الفقهاء ص 168.
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص 168.
(4) المصدر نفسه ص 168.

عن كل البلاد التي يملكها.

3 - صلاح الدين يعقد مجلس شورى:

دعا السلطان صلاح الدين بعد انتهاء المعركة لعقد مجلس الشورى، حضره أرباب المشورة والأمراء، أمثال القاضي ابن شداد، والعماد الأصفهاني الكاتب، وذلك للبث في أمر عكا وقام صلاح الدين بإلقاء خطبة عليهم، قال فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطئ الإسلام وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا المجتمع اليسير ولابد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن يفتح البحر، جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم. فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك [1]. وبعد مشاورات ومناقشات كثيرة انقسم أعضاء المجلس إلى فريقين فقد أيد الفريق الأول السلطان في استمرار القتال قبل أن يجمع العدو شمله ويسعفه البحر بالإمداد، بينما ناد المعارضون باتجاه العسكر إلى الخروبة [2] حتى يستجم قائلين: وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوماً، وما طعمنا في هذه الليالي نوماً، ولا سمعنا لطارق طيف غمضاً، وقد كلت الضوامر وفلت البواتر وملت العساكر، وهذا الشتاء قد أقبل، والعدو قد استقتل وهؤلاء لا يتمكن منهم إلا بالجمع الجم، والسيل لا يغلبه غير الخضم والصواب أن نصابرهم هذه الشتوة، ونستجد لنا ولخيلنا القوة ونتأخر عن هذه المنزلة، لتحصيل هذه المصلحة المؤملة... والصواب الأخذ بالاحتياط وتقديم الكتب والرسل إلى الأطراف والأوساط، ومكاتبة دار الإسلام بالشام، فإن المسلمين لاشك ينجدون، ويقومون بالنصرة ولا يقعدون، فحينئذ ينتهي أمد المصابرة، ونصمم على المكابرة مع المكاثرة، ونباديهم ونفاتحهم قبل انفتاح البحر، ونغاديهم ونراوحهم على اقتراح القهر، وننسفهم ولو أنهم جبال [3] وتغلب - أي المعارضين-.

واضطر صلاح الدين أن ينزل عند رأيهم وانتقل العسكر إلى الخروبة في رابع شهر رمضان 585هـ/1189م، وهناك أصيب الفقيه عيسى الهكاري بمرض أدى إلى وفاته وهو في ركاب صلاح الدين مستعداً كعادته لتلبية نداء الجهاد في سبيل الله [4] وقد

---

(1) مفرج الكروب (304/2)، دور الفقهاء والعلماء ص 165.
(2) حصن بسواحل بحر الشام مشرف على عكا معجم البلدان (262/2).
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 165.
(4) المصدر نفسه ص 166.

جاء رحيل السلطان وعساكره عن عكا فرصة كبيرة للصليبيين انتهزوها وأحكموا حصارهم حول عكا، وحصنوا أنفسهم، واتخذوا كل الاحتياطات اللازمة لحماية أنفسهم من صلاح الدين [1]، وقد نتج عن هذا ضياع عكا في النهاية بعد حصار دام عامين كاملين في سابع عشر جمادى الآخرة سنة 587هـ/12يوليو 1191م[2].

4 - طلب العون من ملك المغرب (الموحدين) :

أبو يعقوب المنصور بن عبد المؤمن الموحدي ولكن هذا السلطان كان غاضباً من صلاح الدين، لأن أحد مماليك ابن أخيه واسمه قراقوش التقوى هاجم برقة وطرابلس الغرب ثم تونس وكان تقي الدين عمر مولاه يأمل في إقامة ملك له هناك، وفشل المشروع [3]، فقد أرسل صلاح الدين إلى ملك المغرب هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة [4] وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً جاء فيه: الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الذراري التي بعضها من بعض وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب، ويذكر السلاوي أن أبا يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين وأنه أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً، وقد قيل إن المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة وحال دون وصولها استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون [5]، بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[6].

على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة

---

(1) المصدر نفسه ص 166.
(2) المصدر نفسه ص 166.
(3) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الفارس ص 287.
(4) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن (216/4).
(5) تاريخ ابن خلدون (490/6).
(6) تاريخ الإسلام (216/4)، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي (518/2).

يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس [1]، كما أن للموحدين تصريحات تدل على رغبتهم في الرحلة إلى المشرق وظمه لدولتهم وقد أشار الذهبي عن رغبة السلطان المنصور برغبته من قصد مصر [2] وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره كقوله في مدح الخليفة الموحدي يعقوب بن منصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم ::: أوفى الحظوظ فأبدت منظراً عجبا
أعلى المراتب من بعد النبوة قد ::: حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا
سينظم السعد مصراً في ممالكه ::: حتى يدوخ منها خيله حلباً
إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ::: أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله ::: وكل عصر له ما زال مرتقبا [3]

لقد كان الموحدين يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية، لقد صرح السلطان الموحدي برغبته في غزو البلاد المصرية، وذكر ما فيها من المناكر والبدع وقال: نحن إن شاء الله مطهروها ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله [4] إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله ولا شك أن أمراء الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم، فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لإمارات المشرق في وجه الأطماع الموحدية.

وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها [5] لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، لقصره أولاً ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد

(1) المصدر نفسه (519/2).
(2) المصدر نفسه (519/2).
(3) دراسات في تاريخ المغرب ص 115.
(4) دراسات في تاريخ المغرب ص 115.
(5) سقوط دولة الموحدين ص 198.

ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم [1].

ولقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، وخارجي متربص، ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه ولما مدحه سفير صلاح الدين شمس الدين بن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتا أعطاه بكل بيت ألفاً [2]، ومن القصيدة:

سأشكر بحراً ذا عُباب قطعته ::: إلى بحر جُود ما لنعماه ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الهدى ::: إلى من سمت بالذَكر منه الأوائل
إليك أمير المسلمين ولم تزل ::: إلى بابك المأمول تُزجْى الّرواحل
قطعت إليك البَرَّ والبحر موقناً ::: بأنَّ تَدَاك الغَمْرَ بالنّجح كافل
فما راعني من وجبة البَرِّ رائعٌ ::: ولا هالني من زاخر البحر هائل
ومن كان غايات المعالي طِلاَبهُ ::: يهون عليه كلُّ أمرٍ يحاول
رجوتُ بقصدِيك العُلا فبلغتها ::: وأدنى عطاياك العُلا والفضائل
فلا زِلت للعلياء والجود ثانياً ::: تُبلّغُك الأيَّامُ ما أنت آمِلُ [3]

إن صلاح الدين الأيوبي لم يعترف بخلافة السلطان الموحدي ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال:... بأن الخطاب يكفي وطريق جحدنا له ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع مبابعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحلَّ طاعته، متقلدين لمن لاتصح ولايته[4].

ولو التقى صلاح الدين مع السلطان الموحدي في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة ولكن الله غالب على أمره، ومهما يكن من شيء فإن هذا

(1) المصدر نفسه ص 198.
(2) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي (520/2).
(3) كتاب الروضتين (206/4).
(4) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي (521/2).

الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين صلاح الدين وملك الموحدين لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة، قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين [1].

إن صلاح الدين سعى للاستفادة من الموحدين ضد الحملة الصليبية الثالثة وهذا يدل على مرونته السياسية الكبيرة فقد أدى ما عليه، أما سلطان الموحدين كان يمكنه أن يتجاوز الخلافات المنهجية ويساهم مع صلاح الدين في الدفاع عن الأمة الإسلامية إلا أنه فشل في هذا الاختبار.

5 - دور القاضي الفاضل أثناء حصار الصليبيين لعكا:

كان للقاضي الفاضل دور بالغ الأهمية أثناء حصار الصليبيين لعكا وكان متواجداً بمصر آنذاك يدبر شؤونها نيابة عن صلاح الدين، وكان من خلال موقعه هذا يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأسطول، وحمل المال، ونقل الميرة إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته مشيراً وناصحاً ومسلياً وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصيا [2]. وكانت مكاتباته تتواصل إلى صلاح الدين أثناء حصار الفرنج لعكا بصفة مستمرة، مليئة بالعبارات الصادقة بكل مشاعر الحب والإخلاص للتخفيف عنه من صعوبة هذا الحصار ومشاركته أحزانه وآماله فكان يشجعه فيها ويحثه على الصبر ويقوي من عزيمته لمواصلة الجهاد وعدم اليأس، وعدم القنوط من رحمة الله وكرمه، ويدعوه للتمسك بالأمل في نصر الله وكانت هذه العلاقة مبنية على الأخوة في الله ووحدة الهدف، وليست قائمة على تابع ومتبوع وسيد وخادم، فجاء في إحدى هذه الرسائل: ولا يكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدو فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها، والعاقبة للتقوى ولينصرن الله من ينصره، والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه بولده وبخاصته وبعامة جنده [3].

وكان من ضمن الرسائل الأخرى التي كان يرسلها القاضي الفاضل إلى صلاح الدين تلك التي أوضح فيها اعتذاره عن تأخر وصول الأسطول المصري إلى الشام بالإمدادات التي طلبها صلاح الدين من مصر، موضحاً أن ذلك مرجعه اشتداد الرياح

---

(1) المصدر نفسه (521/2).
(2) كتاب الروضتين (165/2)، دور الفقهاء والعلماء ص 169.
(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 169.

المعاكسة وليس تقصيراً منه [1]. ومما لا شك فيه أن هذه الرسالة تعتبر تأكيداً للدور الذي كان يقوم به في مصر هذا القاضي الأجل وغيره من الفقهاء والعلماء لمساعدة صلاح الدين وتأمين مستلزمات وتموين الجند المحارب معه بعكا [2] وجدير بالذكر أن القاضي كان يحاول بكل الطرق والوسائل الممكنة أن يساعد صلاح الدين والمسلمين أثناء هذا الحصار، فأرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد كتاباً يستحثه فيه بأقوى العبارات وأوقعها على النفس والقلب، مهيباً به أن يقف بجانب صلاح الدين والمسلمين في هذا الموقف الصعب، نصرة لدين الله ولرسوله ﷺ وإعلاء لشأن المسلمين، ولعل أقوى العبارات التي أوردها في هذا الكتاب قوله مناشداً الخليفة: فيا عصبة محمد عليه السلام، أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا، فأنا والمسلمون عندك ودائعه، وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعاً وقبل ترابها خاشعاً وناجاها بالقول صادعاً ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن عدو الإسلام أن يقول قولاً آخر لسافر، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال مايبكي العيون وينكي القلوب ولكنه صابر محتسب منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب [3].

وعلى ذلك تجاوز القاضي الفاضل بالسلطان صلاح الدين تلك المحنة القاسية، التي مرت به عكا، وكان وحده بمثابة جيشاً ثانياً يحارب جانبا إلى جنب مع صلاح الدين [4] ومما جاء في رسائل القاضي الفاضل لصلاح الدين من النصح والإرشاد قوله:.. وهذا دين ما غلب بكثرة ولا نُصر بثروة، وإنما اختار الله تعالى له أرباب نيَّات، وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخَلفُ لذلك السلف:**{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}** (الأحزاب، الآية: 21) واشتدي أزمة تنفرجي والغَمرَات تذهب ثم لا تَجئ والله تعالى يُسمُع الأُذُن ما يُسُّر القلب، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ما ابتلى إلا بذنب [5].

وجاء في كتاب آخر له: إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صَدَقناه لعجَّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نَقْدِرُ عليه من أمره لفعل لنا مالا نقدر

---

(1) المصدر نفسه ص 169.
(2) المصدر نفسه ص 169.
(3) دور العلماء والفقهاء المسلمين في الشرق الأدنى ص 170.
(4) المصدر نفسه ص 170.
(5) كتاب الروضتين (179/4).

عليه إلا به، فلا يستخصم أحدٌ إلا عمله، ولا يَلُم إلا نفسه ولا يَرجُ إلا ربَّه ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يُقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النَّصر إلا بها ولا نأمن أن يكلنا الله إليها والنَّصر به، واللُّطف منه، والعادة الجميلة له ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا، فلولا أنها تسدُّ طريقَ دُعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق [1].

ومن كتاب آخر: وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خوراً إنما يشكو منه ضجراً والقوى البشرية لابد أن يكون لها حدٌّ والأقدارُ الإلهية لها قصد، وكلٌّ ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حَدِّها وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مَقْتَ المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله قال الله تعالى:**{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}** (آل عمران، الآية 159 يا مولانا، أليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل، ولم يستصلح، ولم يختر، ولم يسهل ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه، وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه، وحماية شعاره، وحفظ قبلة موحِّديه إلا أنت؟ هذا وفي الأرض من هو أحق للنُّبَوة قَرَابه، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكَسَّلهم ونشَّطك، وقبضهم وبسطك، وحَبَّبَ الدنيا إليهم، وبَغَّضها إليك وصعَّبها عليهم وَهوَّنها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وَجرَّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبَّطهم وسيّرك**{وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ}** (التوبة، آية: 46). نعم، وأخرى أهمُّ من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ومغرب الشمس ومزخر البحر، ما تأخرَّ منهم متأخرٌ ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستعبد وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تنُفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم مهطعين [2] إلى الدّاعي، ساعين، وهم من كل حَدَب يَنسلُون، ومن كل بَرٍّ وبحر يقبلون - أبقاك الله - كما قيل:

ولســـت بَملْـــكِ هـــازم لـــنظيره ::: ولكنـــك الإســـلامُ للشِّـــرك هـــازم

وهذا وليس لك من المسلمين كافَّة مساعد إلا بدعوة ولا مجاهد معك بلسانه، ولا خارج معك إلا بهم، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة تشتري

---

(1) المصدر نفسه (181/4).
(2) كتاب الروضتين (182/4).

منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، فادعهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة تكلفّهم النَّافلة، وتعرض عليهم الجنَّة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم[1].

وقال في كتاب آخر:.. ولنا ذنوب قد سَدَّت طريق دُعائنا فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، والله قَدَرٌ لا سلاح لنا في دفعِهِ إلا أن نقول: لا حول ولا قُوَّة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال:**{قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ}** (الأنعام، آية: 64) وقد جمع العدوُّ لنا وقيل لنا: أخشوه، فقلنا: حسبنا الله ونعم الوكيل، متنجّزين بذلك موعود الإنقلاب بنعمة من الله وفضل، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس إلا الاستعانة بالله، فما دلنا الله في الشدائد إلا على الدُّعاء له وعلى طروق باب كَرمَه وعلى التضرع إليه،**{فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ}** (الأنعام، آية: 43). ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرّحمة، ومن اليأس من الفَرَج فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرَّشَد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه ولا حيلة إلا بترك الحيلة، بل قَصدُ من تمضي أقداره بلا حيلة سبحانه وتعالى، إن علم الله من جند مولانا أنهَّم قد بذلوا المجهود فقد عَذَرهم، فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة أو قصَّروا في نصُرة كلمة الله فيكفيهم مقت الله [2] والمملوك يذكّرُ المولى بصبره، وبرحب صدره وبفضل خلُقه وبتقواه لربه، وبمداراة مِزَاجه وببرء القلوب الإسلامية ببرء جسمه**{وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ}** الآية إلى**{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى}** (الأنعام: 35) والمولى أولى بهذا البيت:

لا بَطِرٌ إن تتابعت نعمٌ ::: وصابرٌ في البلاءِ مُحْتَسِبٌ

قيل للمهلب: أيسُرك ظفرٌ ليس فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز ولا بُدَّ أن تنفذ مشيئة الله في خَلْقه، ولا رادَّ لحكمه فلا يتسخَّط مولانا بشيء من قَدره؛ فلأن يجري القضاء وهو راضي مأجور خيرٌ من أن يجري وهو ساخط موزور، فيعطي نار الشَّدة أعاذه الله منها - ولا يجُد راحة الثَّواب منها، وقَّر الله حظه منه من شكا بَثَّه وحزنه إلى الله شكا إلى مُشتكى واستغاث بقادر، ومن دعا ربَّه دُعاء خفيّاً استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفيَّة عَنَّا ولا يقطع الظهور التي لا تشتد إلا به ولا يضيق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شّرد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكا... فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدّهر إلا بربٍّ الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنَّه لا يقل الهم إن كَثُرَ الفكر:

---

(1) المصدر نفسه (182/4).

(2) كتاب الروضتين (186/4).

قـــد قلـــت للرجـــل المُقَسَّـــم أمـــره ::: فـــوِّض إليـــه تـــنم قريـــر العـــين[1]

كل مقترح يُجاب إليه إلا ثغراً يصير نصرانياً بعد أن أسلم أو بلد يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يا مولانا هذه الليالي التى رابطت فيها والناس كارهون، وسَهِرْت فيها والعيون هاجعة وهذه الأيام التي يُنادى فيها: يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشَّيب في الرؤوس، وهذه الغمراتُ التي تفيض فيها الصدور بمائها بل بنارها، هي نعمة الله عليك وغراسُك في الجنة، ومجملات محضرك،**{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً}** (آل عمران: آية 30)، وهي مُجَوّزاتك الصراط، وهي مثقّلات الميزان، وهي درجات الرضوان [2]، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليتُ أيهما ركبتُ، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع بالغُبار وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ما استعمل الله في القيام بالحقّ إلا خير الخلق، وقد عرف ما جرى في سير الأوّلين وفي أنباء النَّبيين، وأن الله تعالى حَرَّض نبيه ﷺ أن يهتدي بُهداهم، وأن يسلك سبيلهم ويقتدي بأولي العزم منهم، وَما تغلو الجنَّة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً وكأنَّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر وإنما يقظاتُ العين كالحُلُم أهم الوصايا أن لا يحمل المولى هما يُضعفُ به جسْمَه ويُغيرُّ مزاجه والأمة بنيان وهو - أبقاه الله - قاعدته والله يثبّتُ تلك القاعدة في نصرة الحق.

ومما يستحسن من وصايا الفرس، إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس فيه حيلة - والعياذ بالله - فلا تجزع وربَّ واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهمّ به بالتدبير مع مقدور الله لا نصرف همُّه وكُفي خطبه**{وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ}** (الإنسان، الآية: 30). هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلتِ الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ولا تعويلاً على قوة إلا على قوَّته، فهنالك الفرج ميعاده واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل "متى نصر الله" وليصبر فإنما خلق للصَّبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلى أنت المعافي، وليرضَ عن الله سبحانه، فإنّ الرَّضِيَّ عند الله هو المسلم الرّاضي فأما أخبار فتنة بلاد العجم فسبحان من ألحق قلوبهم

(1) كتاب الروضتين (187/4).
(2) المصدر نفسه (187/4).

بألسنتهم:{قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذرها فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} (الأنعام، آية: 91).

وكتب السلطان إلى القاضي الفاضل كتاباً من بلاد الفرنج يخبره عمّا لاح لـه من أمارات النَّصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها، فكتب إليه الفاضل: فأما قول مولانا إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه مُحيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفي عنها بهذه الساعات وعُفّيتَ، فيكفي مستغفراً لسان السَّيف الأحمر في الجهاد ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سَعَتْ في مِنْهاجك، وطوبى لوجه تَلَثَّم عَجَاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقُتِلت، وأن الخواطر بُشكر الله فيك عن شُكرها لك قد شغِلتْ [1] وهذا هو القاضي الفاضل العالم الرباني، صاحب البيان البديع، والفهم العميق لسنن الله في تحقيق النصر ولا نستغرب بعد هذه المكاتبات من قول صلاح الدين ما فتحت بلداً بسيفي ولكن بقلم القاضي الفاضل، إن وجود نوعية القاضي الفاضل بجوار القيادات السياسية والعسكرية لها أثره المعنوي فيها يفتح الله أبواب الأمل للقيادات وتحرص على الثواب فيما عند الله وتكون سبباً في صبرها وثباتها.

6 - جهود صلاح الدين في فك الحصار عن عكا:

استنفر صلاح الدين المسلمين وأمراءهم للجهاد في سبيل الله، ووقف - رحمه الله - بجموع المسلمين يكرون على الأعداء، والحرب بينه وبين الصليبيين سجال، كلما دمَّر لهم كتيبة استبدلوا بها كتائب وأوروبا هناك تقف وراء جيوشها تدعمها وتمدها بالمال والسفن والرجال في كل حين، والحقد على المسلمين يملأ قلبها، ولما اشتد الحصار على عكا أصبح هم صلاح الدين الكبير أن يمدّ المحاصرين بالمال والنفط والرجال؛ لأن إمدادات الصليبيين تصل إليهم بسهولة وإمدادات المسلمين المحاصرين لا تصل إلا بصعوبة شديدة فلم تبق حيلة أو خدعة حربية يفكر بها القادة، إلا وقد استخدمها صلاح الدين الأيوبي [2] ومن هذه الحيل:

أ - اختراق الحصار البحري على عكا:

كان صلاح الدين رحمه الله قد أعّد ببيروت بطسة وعمّرها، وأودعها أربع مئة غِرارة من القمح ووضع فيها من الجبُن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا، حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين، وكان

(1) كتاب الروضتين (190/4).
(2) كتاب الروضتين (154/4).

قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسة ببيروت جماعة من المسلمين، وتزيُّوا بزي الفرنج، حتى حلقوا لحاهم، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث تُرى من بُعد، وعلَّقوا الصُّلبان، وجاؤوا قاصدي البلد من البُعد حتى خالطوا مراكب العدو، فخرجوا إليهم، واعترضوهم من الحَرَّاقات والشَّواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم فقالوا: أوَ لم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: لا لم نأخذ البلد بعد. فقالوا: نحن نردُّ القلوع إلى العسكر، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها، فاشتدَّت البطسة الإسلامية في السَّير، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرجاً عظيماً، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد[1].

وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قَرَاقُوش وهو والي البلد، والمقَّدم على الأسطول، وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر ما يكفي البلد إلى ليلة النّصف من شعبان لا غير، فأسَرَّها يوسف في نفسه ولم يبُدْها لخاص ولا عام، خشية الشيُّوع والبلوغ إلى العدو، وتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والإدام والمير، وجميع ما يحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ولجَّجَت في البحر تتوَّخى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان وقد فنيت الأزواد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من السَّاحل والناس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثَّكلى يشاهد القتال، ويدعو رَبَّه بنصره وقد علم من شِدَّة القوم ما لم يعلمه غيره، وفي قلبه ما في قلبه والله يثبته، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح تشتد، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب، حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى ميناء البلد وتلقّاهم أهل عكا تلقي الأمطار عن جَدْب [2].

ب - عيسى العوام يخترق الحصار:

---

(1) المصدر نفسه (154/4).
(2) كتاب الروضتين (154/4، 155).

ومن نوادر القتال على عكّا، أن عوّاما مسلماً كان يُقال لـه عيسى، كان يدخل البلد بالكُتُب والنَّفقات على وسطه ليلاً على غِرَّةٍ من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وكان ذاتَ ليلةٍ شَدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكُتبٌ للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه أمرٌ أهلكه، وأبطأ خبره - عن المسلمين - وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرف المسلمون بوصوله فأبطأ الطائر، فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا النَّاس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه، فوجدوه عيسى العَّوام، ووجدوا على وسطه الذهب ومُشَّمع الكُتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رُئي من أدَّى الأمانة في حال حياته وقدّر الله لـه أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل [1].

قال العماد: فَعُدمَ - يعني عيسى - ولم يُسمع لـه خبر، ولم يظهر لـه أثر، فظنَنتَّ به الظُّنون، وما تيقنت المنون، وكانت لـه لا شك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجملة محتملة فوجد في عكا ميتاً قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مما قالوا، فذهب حق اليقين من الظنُّون بباطلها [2].

ج - استهداف المسلمين آلات الحصار وأدوات الدفاع:

اشتد طمع الصليبيين على عكا ونصبوا المنجنيقات من كل جانب، وتناوبوا على رمي البلد بها ليلاً ونهاراً، ولما رأى من بداخل عكا من المسلمين ما تلحقه تلك المنجنيقات بهم من الضرر، حركتهم النخوة الإسلامية، وعزموا على فتح أبواب المدينة ومهاجمة الصليبيين خارجها ففعلوا ذلك وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب وهاجم المسلمون الصليبيين في خيامهم، فاشتغلوا بحماية خيامهم وتركوا المنجنيقات، فصوبت إليها شهب الزراقين واشتعلت فيها النيران وأحرقت عن آخرها [3].

ح - محاصرة الصليبيين لبرج الذبان:

وفي شعبان من نفس السنة 586هـ حاصر الصليبيون برج الذبان الذي وصفه ابن شداد بأنه برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء عكا لحراسة الميناء لأن المركب متى عبره أمن غائلة العدو، كما أن الاستيلاء عليها يجعل الميناء تحت سيطرتهم فيمنعون السفن المحملة بالميرة من الوصول إلى البلد، وأحضر الصليبيون

---

(1) كتاب الروضتين (160/4).
(2) المصدر نفسه (161/4).
(3) النوادر السلطانية ص 134.

سفناً جعلوا على صواريها برجاً عالياً ملأوه بالحطب والنفط، على أن يسيروها وقتل من عليه من الجنود وعبوا سفينة ثانية ملؤوها حطباً ووقوداً على أن يدفعوها إلى أن تدخل بين سفن المسلمين، ثم يشعلوا النيران منها إلى سفن المسلمين فتحرقها مع ما فيها من المير، كما شحنوا سفينة ثالثة بالجنود، وجعلوا عليها حاجزاً على هيئة قبو يمنع عنهم سهام المسلمين، فإذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا ذلك القبو، وبالرغم من أن تجاه الرياح كان بادئ الأمر يسير على ما يريدون، فإن قدرة الله شاءت بعد أن أشعلوا النار في البرج الذي أقاموه على صواري السفن، وكذلك السفينة التي كانوا يزمعون إرسالها بين سفن المسلمين، أن انعكس اتجاه الريح عليهم فاحترقت سفنهم الأولى التي عليها البرج وكذلك الثانية، ثم امتدت النيران التي بها الجنود وعليهم القبو، فانزعج من بداخلها من الصليبيين، ولم يستطيعوا الخروج من القبو فهلكوا جميعاً [1].

وبالرغم من تلك الكارثة التي حلت بالصليبيين عند محاولتهم الاستيلاء على برج الذبان، فإنهم لم ينقطع أملهم في أخذ ذلك البرج، حيث عادوا مرة أخرى، ووضعوا آلة عظيمة على هيئة دبابة [2] لها رأس عظيم برقبة شديدة من الحديد تسمى كبشاً ينطح بها السور فتهدمه بتكرار نطحها، كما استخدموا آلة أخرى هي عبارة عن قبو فيه عدد من الجنود ورأسه محدد على شكل السكة التي تستخدم في الحرث تسمى سنوراً، فرأس الكبش مدور يهدم بثقله ورأس السنور يهدم بحدته، كما استخدموا أيضاً الستائر والسلاليم الكبار الهائلة وأعدوا في البحر سفينة عظيمة أقاموا بها برجاً إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه فتمشي عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه من برج الذبان فيأخذوه، ولما اكتملت استعداداتهم شرعوا في الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وهم في خلق لا يحصى وأهملهم المسلمون بادئ الأمر حتى نشبت مخاليب أطماعهم في عكا، وصحبوا آلاتهم تلك وقربوها من الأسوار، وعندما أصبحوا على تلك الحالة، صاح المسلمون عليهم صيحة واحدة، وفتحوا الأبواب، وباعوا أنفسهم لخالقها وباريها كما يقول المؤرخ ابن شداد وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوه في الخنادق، ولما رأوا ما نزل بالصليبيين من الخذلان والهزيمة وهجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من إحراقه هرب المقاتلة منه، ثم سرت النار كذلك في السنور وأحرقته ثم علق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديدية وسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد وكان هذا الكبش يتألف من عدد من الآلات وألقى

(1) النوادر السلطانية ص 138، 139، صلاح الدين والصليبيون ص 260.
(2) صلاح الدين والصليبيون ص 260.

عليه الماء حتى برد حديده بعد أيام وكان هذا في رمضان من سنة 586هـ/أكتوبر 1190م [1].

س - سيطرة المسلمين على الموقف:

ومما مضى يظهر لنا مدى سيطرة المسلمين على الموقف وكذلك مدى ما وصل إليه الصليبيون من الهلع والخوف حيث لم يكتف المسلمون بإلحاق الضرر بآلات الصليبيين بل عمدوا إلى الاستفادة منها في جهادهم لتصفيتهم، ولما كان يوم الأربعاء منتصف شهر رمضان خرج المسلمون على ظهور سفنهم وباغتوا تلك السفينة الصليبية التي كانت قد أعدت لأخذ برج الذبان، فضربوها بقوارير النفط وباءت محاولة الصليبيين لأخذ البرج بالفشل الذريع[2].

ش - شجاعة فائقة:

وفي جمادى الأولى من سنة 587 هـ/يونيه 1191م هاجم الصليبيون سفينة إسلامية كانت قد سيرت من بيروت بعد شحنها بالآلات والأسلحة والمير والرجال، وكان مقدمهم رجلاً شجاعاً، فما أن رأى إمارات الغلبة عليهم حتى أشار على أصحابه بإغراق سفينتهم بأيديهم لئلا يتمكن العدو من الظفر بها، فوقعوا في جوانبها بالمعاول حتى دخل الماء إليها فغرقت وغرق جميع ما فيها من الآلات والمير، ولم يظفر العدو بشيء منها [3].

ع - هجوم إسلامي على دبابة عظيمة مكونة من أربع طبقات:

عزم المسلمون إذ كانوا داخل عكا على مهاجمة الصليبيين وتكبيدهم خسائر أكثر لكي يثبتوا لهم أن غرق السفينة لم يؤثر عليهم وحدث في ذلك الوقت أن اصطنع العدو دبابة عظيمة هائلة مكونة من أربع طبقات، الطبقة الأولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس وكان ارتفاعها أكثر من ارتفاع السور، وشحنوها بالمقاتلة وقربوها من السور لمهاجمة المسلمين في الداخل، إلا أن المسلمين بادروا بضربها بالنفط، واستمر ضربهم ليلاً ونهاراً حتى تمكنوا من إشعال النار فيها وإحراقها [4]، وعلى الرغم من تلك الخسائر التي ألحقها المسلمون بالصليبيين، فإن الغرب الأوروبي لم تنقطع إمداداته عن الصليبيين ببلاد الشام، الأمر الذي مكن

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 261، النوادر السلطانية ص 140.
(2) النوادر السلطانية ص 143، صلاح الدين والصليبيون ص 261.
(3) النوادر السلطانية ص 161، صلاح الدين والصليبيون ص 261.
(4) النوادر السلطانية ص 162، صلاح الدين والصليبيون ص 262.

الصليبيين من مواصلة حصارهم لعكا، ففي الوقت الذي كان صلاح الدين فيه قد حقق انتصارات عظيمة على الصليبيين سواء في المعارك أو في تحطيم آلاتهم وأدواتهم وصل إلى المشرق الإسلامي أعظم ملوك أوروبا في ذلك الحين وهما الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشادر قلب الأسد ملك إنجلترا، اللذين سلكا طريق البحر إلى هناك، ولا شك إنه كان لوصولهما أثره البالغ في رفع الروح المعنوية للصليبيين [1].

غ - إخراج عسكر عكا، وإدخال البدل عنهم إليها:

ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدوَّ من أن يضرب مصافَّ وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواثرها أذِن السلطان للعساكر في العود إلى بلادها ليأخذوا نصيباً من الرّاحة.... ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحَلْقة الخاصة [2] واشتغل السلطان بإدخال البَدَل إلى عكا، وحمل الميرَ والذخائر، وإخراج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهَم من طول المقام بها، ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً وكان مُقَدَّم البَدَل الدّاخل من الأمراء سيف الدّين المشطوب دخل في سادس عشر المحرّم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خَلْق من الأمراء وأعيان من الخلق وتقدم إلى كلّ من دخل أن يصحب معه ميرة سنة كاملة [3].

ك - بلاء عظيم على المسلمين:

انتقل الملك العادل بعسكره إلى حيفا على شاطئ النّهر، وهو الموضع الذي تُحَمّلُ منه المراكب، وتدخل إلى البلد، وإذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم يحثُّ الناس على الدخُّول، ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يتعرضها، وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الإثنين ثاني ذي الحجة، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب الميناء فانقلب كل من في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلقّي البطس وأخذ ما فيها ولما علم العدو انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر اجتمعوا في خلْقٍ عظيم وزحفوا على البلد من جانب البَرّ زحفة عظيمة وقاربوا الأسوار وصَعِدوا في سُلَّم واحد، فاندق بهم

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 262.
(2) النوادر السلطانية ص 231.
(3) كتاب الروضتين (232/4).

السُلَّمَ كما شاء الله تعالى، وأدركهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً وعادوا خائبين خاسرين [1]، وأما البطس، فإن البحر هاج هيجاناً عظيماً، وضرب بعضها ببعض على الصَّخر، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها، وهلك فيها خلق عظيم، قيل كان عددهم ستين نفراً وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفتِ البلد سنة كاملة ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم وحَرِجَ [2] السلطان لذلك حرجاً شديداً، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد [3].

د - إسلام بعض الفرنج:

استأمن من الإفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلى معسكر السلطان صلاح الدين وقالوا: نحن نخوض البحر في براكس [4] ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم وأعطاهم بركوساً - وهو المركب الصغير - فركّبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة فأسروهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان، فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه [5]، فلما أُكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المُنعمة، وأسلم منهم شطرهم وأحضروا مائدة فضة عظيمة، وعليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن ولو وزنت تلك الفضيات قاربت قنطاراً، فما أعارها طرفه احتقارا [6].

ل - استشهاد جمال الدين محمد بن أرككز:

والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر، فأحرقت للكفر شواني برجالها وكان عند العود تأخر شيني، مقدَّمه الأمير جمال الدين محمد بن أرككز، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاَّحوه إلى الماء وسلمَّوه إلى البلاء فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان، فقال: ما أضع يدي إلا في يد مقدَّمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير، فجاء إليه المقدم الكبير، وظنَّ أنه قد حصل له الأسير فعاقره وعانقه وقوَّى عليه وما فارقه، ووقعا في البحر وغرقا وترافقا في الحمام واتّقفا، وعلى طريقي

---

(1) المصدر نفسه (233/2).
(2) المصدر نفسه (233/2).
(3) حَرِجَ: ضاق صدره.
(4) براكس: مراكب صغيرة.
(5) كتاب الروضتين (236/4).
(6) المصدر نفسه (236/4).

الجنة والنار افترقا [1].

ك - وصول القاضي الفاضل إلى معسكر السلطان صلاح الدين:

وصل القاضي الفاضل من مصر إلى المعسكر المنصور في ذي الحجة وكان السلطان متشوقاً إلى قدومه وطالت مُدّة البين لغيبته عنه سنتين، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبَّة وقد جمع للملك العزيز بمقامه هيبة ومحبّة وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام وإن تركه نال وحشة التفرُّد بالقضايا والأحكام وكان يكاتبه بشرح الأحوال ويستشيره والنجّابون متردّدون بالمكاتبات والمخاطبات والاستشارة في المهمَّات، فوصل إلى القدس واعتاق بتوالي الأمطار... ورجع الفضل واجتمع الشمل واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره [2].

هـ- وفاة قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالموصل:

في هذه السنة توفي بالموصل قاضي القضاة محي الدين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري وقد أثنى العماد الكاتب عليه في "الخريدة" ثناءً كبيراً وأنشد له أشعاراً حسنة منها في التوحيد:

قامت بإثبات الصِّفات أدّلة ::: قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت ::: هزمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صِرنا إليه جميعنا ::: بأدلة الأخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد ::: ألقاه فرط الجهل في التضليل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم:

لائمي في هو الصحابة ::: إرجع إلى سقر
لا بلغتَ المُنَى ولا ::: نِلْتَ من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حب قوم ::: هم السمع والبصر
وهم سادة الورى ::: وهم صفوة البشر
فأبكر المقدم ::: من بعده عمر
ثم عثمان بعده ::: وعليٌّ على الأثر
أيها الرافضي حسبك ::: فالحق قد ظهر [3]

(1) المصدر نفسه (236/4).
(2) المصدر نفسه (238/4).
(3) كتاب الروضتين (239/4).

7 - الملكان الفرنسي والإنكليزي في عكا :

وصل إلى المشرق الإسلامي أعظم ملوك أوروبا في ذلك الحين وهما الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا اللذين سلكا طريق البحر إلى هناك ولا شك أنه كان لوصولهما أثره البالغ في رفع الروح المعنوية للصليبيين حيث أبحر ملك فرنسا من مدينة جنوا وأبحر ملك إنجلترا من مرسيليا وتقابلا في جزيرة صقلية، وهناك قضيا ومعهما جيوشهما نحو ستة أشهر يتمتعون بدفء الشتاء في الوقت الذي كانت فلول الصليبيون ببلاد الشام، المتجمعة أمام عكا تنتظر حضورهما في قلق بالغ [1] ثم أبحر فيليب أغسطس من مسينا في 2 ربيع الأول 587هـ/31 آذار 1191م ووصل إلى صور حيث رحَّب به قريبه كونراد مونتفيرات ثم صحبه إلى عكا وسط ابتهاج الصليبيين وذلك في 23 ربيع الأول 587هـ/31 آذار 1191م، ووصل إلى صور حيث رحبَّ به قريبه كونراد دي مونتفيرات، ثم صحبه إلى عكا وسط ابتهاج الصليبيين، وذلك في 23 ربيع الأول 21نيسان[2]، وفي المقابل ازداد موقف المسلمين في داخل عكا وخارجها، صعوبة، فضجر العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل [3].

ويبدو أن فيليب أغسطس لم يشأ أن ينتظر وصول ريتشارد قلب الأسد، وإنما بدأ على الفور بتشديد الحصار على عكا، بعد أن نظّم صفوف الصليبيين وجدَّد الآن الحصار وشيَّد لهم الأبراج، وراح هؤلاء يقذفون المدينة بشكل متواصل، كما عملوا على ردم الخندق المحيط بها، فقد تأجلت المحاولة لمهاجمة الأسوار حتى يصل ريتشارد قلب الأسد وأتباعه [4].

وكان ريتشارد قلب الأسد قد عرّج على جزيرة قبرص، بعد مغادرته مسينا وكانت تحت حكم إسحاق دوكاس كومنين الذي اشتهر بكراهيته للاتين فوصل إليها في 10 ربيع الآخر عام 587هـ/8 آيار عام 1191م واستولى عليها وأسر إسحاق ثم غادرها إلى بلاد الشام فوصلت سفنه إلى الشاطئ في 10 جمادى الأولى/5 حزيران، ونزل هو إلى البر قرب صور، فرفضت حامية المدينة السماح له بالدخول، وذلك بناء على تعليمات كونراد دي مونتفيرات عندئذ واصل بحراً إلى عكا على رأس خمس وعشرين سفينة

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 262.
(2) النوادر السلطانية ص 237، تاريخ الأيوبيين ص 183.
(3) النوادر السلطانية ص 230، تاريخ الأيوبيين ص 183.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 183.

فوصل إليها في 13 جمادى الأولى/8حزيران، وكان وصوله باعثا للأمل في نفوس الصليبيين الذين يحاصرون عكا على الرغم من فتور العلاقات بينه وبين الملك الفرنسي [1] وفي المقابل ازداد موقف الحامية الإسلامية في المدينة سوءاً أمام ضغط تلك الجموع الهائلة من الصليبيين التي شدَّدت من حصارها على المدينة وكثَّفت هجماتها عليها [2].

رابعاً: سقوط عكا:

كان صلاح الدين يراقب تطورات الموقف من مراكزه عند شفرغم ثم عند الخروبة ثم العياضية وتلقى في نهاية جمادى الأولى/حزيران إمدادات جديدة من الجزيرة، وعندما نفّذ عدة هجمات مضادة على الصليبيين، لجأ هؤلاء إلى مهاجمة عسكره ولكنهم فشلوا في تحقيق أي هدف، بعد أن ثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً وصبروا صبر الكرام [3] وكان الهدف من القتال الوقوف على قوة الخصم، فقد أراد صلاح الدين أن يثبت لريتشارد قلب الأسد أن جيشه ما زال قوياً، وأن بوسعه ملاقاته، وأما ريتشارد قلب الأسد، فإنه أراد من جانبه أن يتأكد مما إذا كان بوسعه أن يفرض إرادته على صلاح الدين بقوة السلاح، أو أن يفرض عليه المفاوضات بعد أن يُلحق بالمسلمين هزيمة تجبرهم على الموافقة على شروطه، مدركاً في الوقت نفسه أن الظروف العسكرية مهيأة لتحقيق ذلك [4].

لم تفلح الهجمات المتعددة التي شنَّها المسلمون ضد الصليبيين المحاصرين لعكا لكن صمودهم في وجه الهجمات المضادة، دفعت ريتشارد قلب الأسد إلى طلب المفاوضات وأعلن عن رغبته في الاجتماع بالسلطان، وكان يأمل بالتوصل إلى تسوية سلمية غير أن صلاح الدين أجاب بحذر ليس من الحكمة أن يجتمع ملكان متعاديان حتى تنعقد بينهما هدنة، ومع ذلك فإنه أعرب عن استعداده لأن يسمح لأخيه العادل أن يجتمع بالملك الإنكليزي وتقرر وقف القتال مدة ثلاثة أيام وتم الاتفاق أن يُعقد الاجتماع في السهل الذي يفصل المعسكرين الإسلامي والصليبي غير أنه حدث أن خرّ ملكاً إنكلترا وفرنسا مريضين فجأة، واشتدت العلة على ريتشارد قلب الأسد، لكن ذلك لم يؤثر على معنويات الصليبيين الذي ازدادوا إصراراً وعتوا[5].

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 184.
(2) المصدر نفسه ص 184.
(3) النوادر السلطانية ص 241، 242، تاريخ الأيوبيين ص 184.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 184.
(5) تاريخ الأيوبيين ص 185.

1 - مفاوضات على تسليم عكا:

والواقع ان الهجمات التي شنَّها صلاح الدين ضد القوات الصليبية لم تفلح وكانت عكا قد ضعفت ضعفاً شديداً واشتد الخناق بالمسلمين في داخلها، وهدمت مجانيق الصليبيين جزءاً من سورها وتخلخل جزء آخر وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة أعمالهم وفي 7 جمادي الآخرة/2 تموز أرسلت الحامية رسالة جاء فيها: إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد، إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلمّ البلد ونشتري مجرد رقابنا [1]. كان هذا الخبر من أعظم ما وقع على المسلمين، لأن عكا كانت مخزناً كبيراً لسلاح الساحل وبيت المقدس ودمشق وحلب ومصر، وفيها كبار أمراء صلاح الدين، مثل سيف الدين على بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، وبهاء الدين قراقوش [2]. ثم أن الحامية اتخذت فعلاً قراراً بوقف القتال، وذهب سيف الدين على المشطوب بنفسه إلى المعسكر الصليبي لمقابلة الملك الفرنسي والاتفاق معه على شروط التسليم. وذكر أن المسلمين كانوا إذا أخذوا بلداً منهم، وطلب من بذلك البلد الأمان على أنفسهم أعطوهم وعرض عليه تسليم البلد له بشرط أن يعطيهم الأمان على أنفسهم، إلا أن ملك فرنسا الذي كان بعيداً كل البعد عن صفات الشهامة والمروءة التي كان صلاح الدين يتحلى بها، امتنع عن إجابة طلبه ورد عليه رداً دل على وحشيته الأمر الذي أثار نخوة سيف الدين المشطوب، فأغلظ له في القول، وكان مما قال له: إنا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل واحد منا حتى نقتل خمسين نفساً من كباركم ثم انصرف عنه المشطوب ودخل عكا يستشير الناس للجهاد وبذل أرواحهم في سبيل الله [3].

وعلى الرغم من ذلك التعنت من ملك فرنسا، فإن الصليبيين كانوا بلا شك يحسبون للقوة الإسلامية حساباً كبيراً بدليل ما ذكره ابن الأثير من أن الصليبيين لم يكتفوا بالتفاوض مع قادة الحامية الإسلامية بعكا، بل أنهم اتجهوا كذلك إلى مفاوضة صلاح الدين نفسه، حيث أرسلوا إليه في أمر التسليم، فأجابهم إليه على أن يطلقوا من بعكا من المسلمين، ويطلق هو من أسراهم بعدد من في البلد [4].

2 - صلاح الدين يحث المسلمين بعكا على الصبر:

---

(1) النوادر السلطانية ص 185، تاريخ الأيوبيين ص 185.
(2) النوادر السلطانية ص 252، تاريخ الأيوبيين ص 185.
(3) النوادر السلطانية ص 168، صلاح الدين والصليبيون ص 265.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 266.

ومهما يكن من أمر فإن صلاح الدين لما رأى ذلك التعنت من الصليبيين أرسل إلى من بعكا من المسلمين يحثهم على الصبر ويأمرهم بأن يخرجوا من المدينة يداً واحدة بعد أن يحملوا على العدو حملة رجل واحد ووعدهم بأن يتقدم هو إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ويقاتل الصليبيين حتى يتمكنوا من الخروج إليه إلا أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح بسبب سيطرة الصليبيين على البلد [1] وهنا أدرك من بداخل عكا من المسلمين أنه لم يعد أمامهم سوى الجهاد والاستبسال في قتال الأعداء، فكتبوا إلى صلاح الدين يذكرون لهم أنهم قد تبايعوا على الموت، وأنهم قد عزموا على الاستمرار في القتال وأنهم لن يسلموا ماداموا أحياء [2] وعلى الرغم من تلك التضحية الكبرى الكبيرة من أهل عكا وحبهم للاستشهاد في سبيل الله فإنه يبدو أن صلاح الدين وأمراءه الذين كانوا بالداخل أمثال الأمير سيف الدين المشطوب وغيره، كانوا حريصين كل الحرص على سلامة أرواح المسلمين، يدلنا على ذلك ما ذكر من أن سيف الدين المشطوب عندما رأى الموقف، خرج إلى الصليبيين للمرة الثانية، وقرر معهم تسليم البلد مقابل خروج من به من المسلمين بأموالهم، وأنفسهم، وأن يدفع لهم فدية قدرها مائتا ألف دينار وخمسمائة أسير، فضلاً عن إعادة صليب الصلبوت ودفع مبلغ من المال إلى كونراد مونتفرات صاحب صور وهنا يذكر له تلك الشروط، أنكر ذلك إنكاراً شديداً [3].

3 - غدر الصليبيين ونقضهم للعهود :

قبل الصليبيين تلك الاتفاقية، وحلفوا لسيف الدين المشطوب فسلم لهم البلد، ودخلوه سلماً، ولما دخل الصليبيون عكا نقضوا عهودهم كعادتهم وغدروا بمن فيه من المسلمين، واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم وحبسوهم وذلك في 17جمادى الآخرة 587هـ/يوليه 1191م متظاهرين بأنهم فعلوا ذلك حتى يصل إليهم ما اتفقوا عليه من الفدية والأسرى.

وهنا شرع صلاح الدين في جمع الأموال، واجتمع عنده مبلغ كبير من المال، واستشار أصحابه في تسليمه للصليبيين فأشاروا عليه بأن يعود مرة أخرى فيستخلف الصليبيين على إطلاق أصحابه وأن يضمن الداوية ذلك، لأنهم أهل تدين ووفاء إلا أن الداوية امتنعوا عن ذلك، وقالوا "لا نخلف ولا نضمن، لأننا نخاف غدر من عندنا [4]"؟.

---

(1) مفرج الكروب (358/2)، صلاح الدين والصليبيون ص 266.
(2) النوادر السلطانية ص 196، صلاح الدين والصليبيون ص 266.
(3) النوادر السلطانية ص 170، 171، صلاح الدين والصليبيون ص 267.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن صلاح الدين والصليبيون ص 267.

عند ذلك علم صلاح الدين غدرهم فلم يجبهم إلى ذلك [1]، كان ألوية الصليبيين ترفرف في ذلك الوقت فوق أبراج عكا واستطاع الصليبيون دخول عكا بعد أن حاصروها قرابة عامين، الأمر الذي أثار موجة من الأسى والحزن عبّر عنها المؤرخون المسلمون ويبدو أن الصليبيين ماطلوا في تنفيذ الشق المتعلق بهم، وكان صلاح الدين قد أرسل لهم القسط الأول من المال والرجال الأسرى ولما طالبهم بتنفيذ البند الخاص بهم كاملاً رفضوا عندها أدرك عزمهم على الغدر ورفض أن يسلمهم ما تبقى من المال والأسرى [2]، ولما رأى ريتشارد قلب الأسد توقف صلاح الدين عن بذل المال والأسرى وصليب الصلبوت لهم لم يعاود الاتصال بصلاح الدين، بل دفعه تهوره وحمقه إلى أن ساق أسرى المسلمين الذي بعكا وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم إلى تلك العياضية وأوثقهم بالحبال ثم حمل الصليبيون عليهم حملة واحدة وقتلوهم عن آخرهم وذلك في 27 رجب 587هـ/20أغسطس 1191م [3].

ولاشك أن ذلك التصرف الوحشي الذي اتخذه ريتشادر مع أسرى المسلمين في عكا لم تكن له نتيجة سوى إثارة النخوة الإسلامية في صفوف المسلمين، الذين استشعروا ذلك الخطر الصليبي، فهبوا من كافة الأقطار الإسلامية للجهاد ضد الصليبيين وبالفعل فإن الجيوش الإسلامية قد منعت الجيوش الصليبية من تحقيق أي انتصار عقب دخولهم عكا وذلك لتفاني الجيوش الإسلامية في ميادين القتال لشعورها بزيادة الخطر الصليبي، فضلاً عما أعقب دخول الصليبيين عكا من خلاف وشقاق بين قادتهم أدى إلى اختلاف كلمتهم وعجزهم عن تحقيق انتصار آخر غير دخولهم عكا ذلك الانتصار الذي لا يقاس في حد ذاته بما لحق بالصليبيين من خسائر [4] وشتان بين السلوك الهمجي الذي اتبعه ريتشارد مع أسرى المسلمين بعكا، وبين ذلك السلوك الإنساني الذي كان صلاح الدين قد اتبعه مع الصليبيين في مواقف كثيرة، منها ما فعله بأسراهم عقب انتصاره في حطين ثم عقب استيلائه على بيت المقدس، إذ حرص دائماً على السماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين[5] ومن المواقف الإنسانية الإسلامية الصلاحية التي ظهرت من صلاح الدين وهو في حصار عكا.

---

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 267.
(2) المصدر نفسه ص 267.
(3) صلاح الدين والصليبيون ص 268.
(4) المصدر نفسه ص 268.
(5) المصدر نفسه ص 268.

4 - المرأة النصرانية التي تبحث عن ابنها الرضيع:

كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو، فيسرقون منهم حتى الرِّجال ويخرجون، فأخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، فلما فقدته أُمُّه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: إنه رحيم القلب، وقد أذِنَّا لك في الخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرد عليك، فخرجت تستغيث لليزك الإسلامي، وأخبرتهم بواقعتها، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تَلّ الخَروبة، وكان القاضي ابن شداد في خدمته وهو الذي روى القصة - وكان في خدمته خلق عظيم، فبكت بكاءً شديداً ومرّغت وجهها في التُّراب، فسأل عن قِصَّتها، فأخبروه، فَرقَّ لها، ودَمِعت عينه وأمر بإحضار الرّضيع، فمضوا، فوجدوه قد بيع في السُّوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المُشتري، وأخذه منه، ولم يزل واقفاً - رحمه الله - حتى أحضر الطّفل، وسُلِّمَ إليها، فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمَّته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة، ثم أمر بها، فَحُملت على فرسٍ، وألحقت بمعسكرهم مع طفلها فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس الإنسان [1].

5 - معاملته لملك إنكلترا:

تكررت الرّسائل من الفرنج إلى السلطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته، منها أن ملك الإنجليز طلب الاجتماع به، ثم فَتَر بعد أياماً، ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر أنها قد ضَعُفَت وتغيَّرت وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى، ثم تُهدى ففهم أنه محتاج إلى ذلك لنفسه، لأنه حديث عهد بمرض ثمّ نفَّذ أسير مغربياً عنده، فأطلقه السلطان صلاح الدين، ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج، فأرسل إليه ذلك [2].

خامساً: أسباب سقوط عكا:

كان ثمة أسباب عديدة تجمعت وأدت إلى سقوط عكا المريع، بعد أن دافع عنها المسلمون قرابة السنتين ولعل من أبرزها:

1 - وصول قوات أوروبية جديدة:

حسم الموقف لصالح الصليبيين فعلى الرغم من كثرة من قتل منهم، إلا أن البحر كان يزودهم بإمدادات جديدة، حتى أضحوا في أعداد لا تحصى من أمم كثيرة تلك التي

(1) كتاب الروضتين (245/4).
(2) المصدر نفسه (253/4).

اشتركت في هذه الحملة الصليبية الضخمة، فتجهز لها الأمراء بما أعدوه من الأموال والأدوات وبما تكلفت به المدن الإيطالية من بذل المساعدة والاشتراك في نقل العساكر والمعدات، وعدم السماح للسفن الإسلامية بإيصال المؤن والمعدات اللازمة إلى المدينة المحاصرة، فكان تفوقهم البحري واضحاً [1]. لقد قاومت المدينة حصار الصليبيين سنتين كاملتين وشهدت خلالهما أعظم عمليات حربية اشترك فيها الصليبيون بأكثر من ربع مليون جندي وامتاز الصليبيون خلال هذا الحصار بأسطول قوي وآلات حربية ضخمة [2].

2 - استخدام الصليبيين لأسلحة جديدة ومتنوعة:

استعمل الصليبيون في قتال عكا أنواعاً كثيرة من الأسلحة والمعدات الحربية القديمة منها أو التي أدخلوا إليها التحسينات سواء الهجومية منها لدك أسوار المدينة أو لحماية أنفسهم خلف الجدران والخنادق التي أقاموها لمنع وصول قوات صلاح الدين إليهم واستطاعوا بعد مرابطتهم الطويلة بين أسوار عكا وقوات صلاح الدين، إحداث الخلل في الأسوار [3] ففي رسالة حررها القاضي الفاضل بعث بها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي أعلن فيها أن الصليبيين قاتلوا مرة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات ورادفة بالدبابات وتابعة بالكباش، وآونة باللوالب ويوماً بالنقب، وليلاً بالسرايات، طوراً بطم الخنادق وآنا ينصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار وأحيانا في البحر بالمراكب [4] وكان رجال ريتشارد يستطيعون أن يتسلقوا جدران السور بواسطة آلة جديدة مستحدثة سموها " الهر" ومجانيق تستطيع رمي الحجارة الضخمة التى تزعزع الجدران وتحدث الهزات حيث تقع في المدينة[5].

3 - طول مدة الحصار البحري والبري:

ولّد تعباً أصاب المسلمين وسبب ذلك ضجراً، رغم ما كان يحدثه صلاح الدين من تبديل بين المحاربين بإرسال البدل إلى داخل المدينة، إلا أنه لم يستطع الاستمرار على ذلك، لاسيما حين شدد الصليبيون من حصارهم عليها وكذلك لم تجد نفعاً النجاحات التي أحرزها الجيش الصلاحي الذي يحاصر الصليبيين - بين فترة وأخرى ولاسيما في بداية

(1) كتاب الروضتين (184/2)، الجيش الأيوبي ص 465.
(2) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجى ص 204.
(3) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 465.
(4) كتاب الروضتين (185/2)، الجيش الأيوبي ص 466.
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص 466.

الحصار الصليبي [1] وكانت النتيجة الحتمية هي التواني في بذل المجهود الحقيقي، ثم إبداء الأمراء التذمر من صلاح الدين، فلم يلبث التذمر حتى صار عادة وتطور إلى نقد ثم إلى معارضة، أضعفت الصف الإسلامي [2] وقد روى السلطان للخليفة العباسي في رسالة أوضح فيها أبعاد الموقف أمام عكا، وانسحاب الأمراء واحداً بعد آخر لأن المدة الطويلة والكلف الثقيلة قد أثرت في استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لا في شجاعتهم، فالبرك - الثياب - قد أقضوه، والسلاح قد أحفوه والدرهم قد أفنوه في حين أن البحر يمد الإفرنج بمراكب أكثر عدة من أمواجه... فإذا قتل المسلمون واحداً من البر بعث عوضه ألفاً، وإذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفاً [3]. إلا أن السلطان لم يأسف لشيء بقدر ما أسف لتغيب ابن أخيه تقي الدين عمر الذي ذهب إلى إمارته في الجزيرة على أن يعود في أقرب قوت، فشغلته أحداث الإمارة عن العودة السريعة، وقد رأى صلاح الدين في غياب تقي الدين أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى سقوط عكا [4].

4 - ضعف المؤسسة المالية في جيش صلاح الدين:

كشف الصراع الطويل مع الصليبيين، وسقوط عكا عن مواطن الضعف المادية في جيش صلاح الدين، ومعروف عن صلاح الدين أنه لم يول اهتماماً كافياً بالإدارة المالية ولم يدخر المال ليوم الحاجة، ويفسر بذل المال الذي عرف عنه، بأن ظروف الجهاد اقتضت ذلك، فقد أنفق المولى مال مصر في فتح الشام وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل [5]. وسرعان ما لقي نفسه بحاجة شديدة إلى المال، لسد نفقات الأسلحة والمؤن والعلف والمعدات وعطاء الجند وكذلك لم يقدر على التخفيف من الضائقة المالية عن العساكر المرابطين على عكا، والذين اضطروا على الاستدانة، وكذلك إحلال خيول وأسلحة جديدة بدلاً من المستهلكة، فالخيول أجهدها الجهاد.. والعدد فقدت بالكلية وعدمت وتكسرت، وتحطمت وأما النشاب فقد فنى ونفضت الكنائن [6]. ويضيف العماد إلى كلامه أنه: احتيج في هذه السنين إلى أحمال كثيرة لا

(1) الجيش الأيوبي ص 466.
(2) المصدر نفسه ص 466.
(3) صلاح الدين الأيوبي، قلعجي ص 300.
(4) المصدر نفسه ص 300.
(5) كتاب الروضتين (177/2)، الجيش الأيوبي ص 467.
(6) الجيش الأيوبي ص 467.

يفي بها الصناع ولا يرفعها العمال[1].

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط عكا

5 - بعد عكا:

كان لسقوط عكا تأثيره الكبير على وضع المسلمين وعلى الرغم من أن الضربة لم تكن قاضية، إلا أن هذا الحدث أضعف المسلمين كثيراً بحيث ركنوا بعده إلى الدفاع السلبي، والذي من مظاهره تخريب بعض القلاع والحصون لكي لا تقع بيد العدو ثم يجعل منها مرتكزاً للهجوم على المناطق الإسلامية صحيح أن فشل جيش صلاح الدين في حصار صور يعتبر بداية لخط الانكسار الإسلامي، إلا أن هذا الفشل يوضع في التحليل الأخير ضمن اخفاقات جيش صلاح الدين، وليس ضمن انتصارات الصليبيين، والقصد من ذلك أن ما حصل في صور هو عدم نجاح حصار المسلمين لإحدى المدن، أما في عكا فقد هزم المدافعون عنها وانتصر الصليبيون [2].

سادساً: وقعة أرسوف:

وضع ريتشارد قلب الأسد خطة تقضي باسترداد المدن الواقعة على شاطئ فلسطين من عكا حتى عسقلان قبل أن يتوجه إلى الداخل ليسترد بيت المقدس فغادر عكا يوم الخميس في 29 رجب 587هـ/22آب 1191م على رأس الجيش الصليبي متخذاً الطريق الساحلي حيث يلقى جناحه الأيمن الحماية والتموين من الأسطول الصليبي، لم تكن ظروف الرحلة سهلة، فقد عانى الصليبيون من شدة الحر وقلة المؤن، وخراب المدن والقرى التي مروا بها، ومضايقة المسلمين لمؤخرتهم [3].

والواقع أن صلاح الدين لم يشأ أن يدع الجيش الصليبي يزحف بسلام وإنما رحل في إثره، وكان يخشى أن يتحرك ريتشارد قلب الأسد نحو عسقلان ليحتلها ويتخذ منها قاعدة يقطع بواسطتها طريق الاتصال بينه وبين بيت المقدس ومصر التي تمده بالقوة الضاربة، وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية، استأنفوا زحفهم نحو قيسارية ولما اقتربوا منها في 17 شعبان/30 آب" أضحى الالتحام بين الجيشين وشيك الوقوع، تمتَّع المسلمون بميزة حرية الحركة في الوقت الذي حصر الصليبيون أنفسهم بينهم

(1) الجيش الأيوبي ص 467، الفتح القسي ص 553.
(2) الجيش الأيوبي ص 468.
(3) النوادر السلطانية ص 189.

وبين البحر [1]، وكان القتال الحاد ينشب بينهم كل يوم وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين إلى الداخل حتى ينحرفوا عن خط سيرهم بمحاذاة الساحل، فيفقدوا ميزة دعم الأسطول، إلا أن ريتشادر قلب الأسد، الذي اتصف بالبراعة القتالية لم يقع في فخ صلاح الدين، وحافظ على خط سيره، ودعا رجاله إلى الحفاظ على النظام، وإلا ينساقوا وراء الاستفزازات الإسلامية، مفوتاً فرصة طالما كان صلاح الدين توّاقاً إليها [2] واستولى الصليبيون على قيسارية الخاوية على عروشها بعد أن خربَّها المسلمون ولم يستفيدوا منها بزاد أومال، ثم واصلوا زحفهم حتى بلغوا مشارف أرسوف وتحركوا باتجاه غايتها الواقعة في شمال شرقي المدينة على امتداد ميلين من البحر، حيث كان السهل من الاتساع ما يكفي لنشوب اشتباك [3] وقرَّر صلاح الدين الذي سبق العدو إلى الغابة، أن يصطدم به في هذا المكان فعبَّأ قواته استعداداً للمواجهة، وحين علم ريتشارد قلب الأسد بخطته تصرف على محورين:

- أرسل بطلب نجدة صليبية من عكا.

- حاول تسوية القضايا مع صلاح الدين بالطرق السلمية والراجح أن صلاح الدين أراد أن يكسب الوقت حتى تصل قوات التركمان التي كان قد طلبها، فتظاهر بقبول مبدأ التفاوض وأناب عنه أخاه العادل الذي اجتمع بريتشارد قلب الأسد - في 12 شعبان/5 أيلول- لكن المفاوضات تعثرت بسبب تصلب ريتشارد قلب الأسد في موقفه، إذ أصرَّ على أن يتنازل المسلمون عن الأماكن التي فتحوها في مملكة بيت المقدس، فبادر العادل على الفور إلى قطع المفاوضات ولم يبق أمام الطرفين سوى القتال [4]. ووصلت في هذا الأثناء، نجدات عسكرية إلى كل من الطرفين فتعَّبأ للقتال وبدأ المعركة في ضحى (يوم السبت 14 شعبان 587هـ/7 أيلول) أحاط الفرسان المسلمون في بدايتها بالصليبيين وأوشكوا أن يقضوا عليهم، لكن ريتشارد قلب الأسد ثبت في القتال، وأعاد تنظيم صفوف قواته بسرعة، فمال ميزان المعركة إلى صالحه ولم تلبث صفوف المسلمين أن تداعت [5]، ولما رأى صلاح الدين ما نزل بالمسلمين صاح فيهم وحرضهم على الجهاد في سبيل الله، وبقي هو ثابتاً في المعركة، فلما رآه الناس على تلك الحالة من الشجاعة

(1) تاريخ الأيوبيين ص 189.
(2) المصدر نفسه ص 189.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الأيوبيين ص 190.
(4) النوادر السلطانية ص 273 - 275، تاريخ الأيوبيين ص 190.
(5) تاريخ الأيوبيين ص 190.

والصبر توافدوا عليه، وقاتلوا الصليبيين قتال الأبطال حتى تمكنوا من دحرهم وإجبارهم على التراجع إلى منزلتهم [1].

سابعاً: خراب عسقلان:

بعد معركة أرسوف، توجه ريتشارد نحو يافا وأخذها دون مقاومة إذ لم يكن بها أحد من المسلمين ليدافعوا عنها، على حد قول ابن الأثير [2] وشرع في إعادة بناء استحكاماتها، أما صلاح الدين فتوجه نحو الرملة، وعقد فيها مجلس حربه، واستشارهم فيما يفعل، فأشار عليه الأمير علم الدين سليمان بن جندر، بإخلاء عسقلان ومن ثم تخريبها؛ لأن هدف العدو، بعد عكا ويافا هو عسقلان ومن ثم القدس، ولأن يافا، التي نزل عليها ريتشارد تتوسط القدس وعسقلان ولا سبيل إلى حفظ المدينتين معا [3] وقد أعلن الأمراء الداعين إلى تخريب عسقلان أن الدفاع عن هذه المدينة يتطلب وجود حامية كبيرة فيها، تعدادها ثلاثون ألف مقاتل، أو عشرون ألفا [4]. وأعلنوا لصلاح الدين: قد رأيت ماكان منا بالأمس، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان، ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها، فهم لاشك يقاتلوننا لننزاح عنها، فينزلوا عليها، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا، ويعظم الأمر علينا، لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها، وضعفنا نحن بما خرج عن أيدينا، ولم تطل المدة حتى نستنجد غيرها، فاعترض صلاح الدين هذا الرأي وطلب من بعض أمرائه الدخول إلى عسقلان، وتنظيم الدفاع عنها، فامتنعوا، بل إنهم ردوا عليه بخشونة غير مألوفة، اعتادوا عليها من الآن فصاعداً، كما يظهر من رواية العماد وابن الأثير وقالوا: إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا [5].

ولم يستطع صلاح الدين إقناع الأمراء ولذلك حزن كثيراً، وبات ليلة مهموماً، يقول ابن شداد: إنه ما نام الليلة إلا قليلاً، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً، فحضرت وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في الأمر. ثم قال: والله لأن أفقد أولادي كلهم أحب إليَّ من أن أهدم من عسقلان حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة

(1) صلاح الدين والصليبيون ص 270، النوادر السلطانية ص 184.
(2) الجيش الأيوبي ص 476 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(3) المصدر نفسه ص 477.
(4) كتاب الروضتين نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 477.
(5) الجيش الأيوبي ص 478.

المسلمين طريقاً فكيف أصنع [1].

واضطر أخيراً إلى الانصياع إلى قرار أمرائه، ووافق على تخريبها، فأمر والي المدينة بأن يتولى ذلك بنفسه، فوضع الوالي المعول عليها فجر 19شعبان 587هـ/12أيلول 1191م، ثم استنفر الناس، وقسم سور المدينة عليهم، وجعل لكل أمير وطائفة جزءاً من السور واشترك هو وولده في تخريبها وأرسل إلى أخيه العادل، الذي كان نازلاً على بلدة يبني بالقرب من الرملة ويافا وطلب منه أن يسوف القوم ويطول حديث الصلح معهم، ريثما نتمكن من خراب البلد [2].

وقد تألم الناس على ما يفعلونه ووقع فيهم الضجيج والبكاء، لأن عسقلان كانت مدينة نضرة خفيفة على القلب، محكمة الأسوار، عظيمة البناء، مرغوبة في سكناها حتى سميت عروس الشام لحسنها [3]. وبعد إكمال تخريبها أمر بإضرام النار فيها، وهاجرها وأهلها وتفرقوا بين مصر والشام واستمرت أعمال التخريب والحرق إلى مستهل رمضان 587هـ/نهاية أيلول 1191م. ولم يكد الجيش يفرغ من تخريب عسقلان حتى سار إلى يبني مقر قيادة العادل، ثم مضى إلى الرملة [4]، أما ريتشارد فإنه انشغل بإقامة التحصينات في يافا، ولم يخاطر في الهجوم على بيت المقدس؛ لأنه إذا غامر بالمسير نحو هذه المدينة، فثمة احتمال قوي أن يقوم جيش صلاح الدين بقطع طريق الاتصال بينه وبين البحر، فكان من الحكمة والتعقل أن يتأكد من مناعة يافا قبل أن يشرع في مغامراته؛ لأن الخسارة تكون أشد وجعاً لسمعة الصليبيين إذا استولوا على المدينة ثم يضطرون إلى تركها ثانية [5]. ومع ذلك فإن التمهل والإرجاء أضحيا بالغي الطول، فتهيأت لصلاح الدين الفرصة لتدعيم وسائل الدفاع عن المدينة المقدسة، وتنظيم صفوف جيشه للجولة التالية في وقت كان الصليبيون ينعمون بأسباب الراحة يافا، فاهتمام ريتشارد بيافا وتعميرها لم يقل عن اهتمام صلاح الدين بتدمير عسقلان؛ لأن القائد الصليبي أدرك أنه يتعذر عليه أخذ بيت المقدس دون إحكام سيطرته على يافا لاسيما وأن عسقلان قد تم تخريبها [6].

ثامناً: تنظيم الدفاع عن القدس:

(1) المصدر نفسه ص 478.
(2) النوادر السلطانية ص 188.
(3) معجم البلدان (122/4)، آثار البلاد ص 222.
(4) النوادر السلطانية ص 189، كتاب الروضتين (192/2).
(5) الجيش الأيوبي ص 479.
(6) المصدر نفسه ص 480.

لم يعد صلاح الدين إلى القدس إلا متأخراً، أي في آخر ذي القعدة 587هـ، إلا أنه أرسل إليها الملك العادل لتفقد أحوالها والنظر في عمارتها [1]. وفضل أن يقيم في المناطق القريبة منها التي خربها الجيش، أي بالقرب من الرملة. وقصد من ذلك أن يكون قريباً من العدو، ومن القدس معاً، حتى إذا فكر العدو بالإغارة على القدس منعهم وتصادم معهم في لقاء مكشوف وفي 6 شوال جمع صلاح الدين أكابر أمرائه وأرباب الأمراء في دولته وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج إلى العسكر الإسلامي، فاتفق، الرأي على أنهم يقيمون في منزلتهم، فإن خرج الفرنج كانوا على لقائهم [2]، وفعلاً وصل اثنان من الصليبيين المستأمنين إلى معسكره وأخبراه أن العدو على عزم الخروج بعد غد، ثم وصل أحد المسلمين الذين كان أسيراً لديهم، وهرب من معتقله، وأخبر أنهم ينوون الخروج. عندها بدأ صلاح الدين بتحصين القدس، وأرسل إلى البلاد يطلب رجالاً يقومون بهذه الأعمال، وعمل السلطان وأولاده وأمراؤه فيها، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء [3].

ووصل من الموصل جماعة كبيرة تقدر بخمسين رجلاً من الحجازين برسم قطع الصخور، لتقوية أسوار القدس وخندقها[4]، وحين انتهى من هذا العمل أمر الجاووش أن ينادي بالعسكر حتى يتجهز وشدت الرايات، للوقوف بوجه العدو، وفي هذا الوقت نكب الجيش الأيوبي بوفاة أبرز قواده هو تقي الدين عمر في منطقة الجزيرة وقد تألم له السلطان كثيراً، إلا أنه أخفى الخبر عن العسكر لكي لا يصل الخبر إلى العدو في تلك اللحظة الحرجة [5]. وكذلك توفي القائد الشجاع الأمير حسام محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، لمرض اعتراه، يوم وفاة تقي الدين عمر، وهو 19 من رمضان 587هـ/خريف 1191م [6]، ويحتمل أن خبر استعدادات الجيش الأيوبي وصل إلى ريتشارد، فلم يشأ أن يلتقي معه في مصاف، إضافة إلى إلحاح هذا الملك على مبدأ المفاوضات، لتكون الأساس للعلاقات بين الطرفين كما أظهرت أحداث الأيام التالية، ما أن حل الشتاء 587هـ/1191م إلا وتوقف الطرفان ولم يحصل أي صدام أو لقاء بينهما، فرحل صلاح الدين حين اشتدت الأمطار إلى القدس، وعاد الصليبيون إلى يافا، وذهب

(1) النوادر ص 192، الجيش الأيوبي ص 480.
(2) النوادر ص 196 - 197، الجيش الأيوبي ص 480.
(3) مفرج الكروب (375/2)، كتاب الروضتين (194/2).
(4) مفرج الكروب (375/2)، الجيش الأيوبي ص 481.
(5) النوادر السلطانية ص 198.
(6) الجيش الأيوبي ص 480، كتاب الروضتين (195/2).

قسم منهم إلى عكا لكن ريتشارد ما انفك يبعث برسله إلى صلاح الدين ويحثه على الصلح.

ونجد أن صلاح الدين كان غير متحمس في عقد الصلح، لكنه كان يبغي الاستفادة من جو المفاوضات في هذا الفصل الذي رحلت عنه جيوش أمرائه وقفلت راجعة إلى أوطانها، لذا طلب من الملك العادل - مرة أخرى - أن يماطل ريتشارد إلى أن تصل عساكر الأطراف، فغادر الملك العادل القدس في بداية ربيع الأول سنة 588هـ/آذار 1192م [1]. إلا أن المفاوضات لم تثمر، عندها قامت جماعات من الصليبيين باحتلال بعض المدن والحصون التي كان دفاعها ضيقاً، مثل مدينة عسقلان التي أعاد ريتشارد تعميرها [2] وجعلها أمنع قلعة على كل الساحل الفلسطيني [3]، وكذلك احتلوا حصن الداروم الذي أمر صلاح الدين بتخريبه في وقت سابق وحين احتله ريتشارد نكل بالمدافعين عنه [4]، واحتلوا حصوناً ومواقع أخرى صغيرة على الساحل الفلسطيني[5].

تاسعاً: طبيعة المفاوضات بين العادل وريتشارد في هذه المرحلة:

بدأت المباحثات في 18 شوال سنة 588هـ/9 تشرين الثاني سنة 1192م عندما أرسل ريتشارد قلب الأسد رسالة إلى صلاح الدين من معسكره قرب بازور، يطلب منه الدخول في مفاوضات من أجل الصلح بحجة أن القتال أهلك كثيراً من قوى الطرفين وخربت البلاد[6]. لكن هذه المفاوضات، الذي أناب فيها صلاح الدين أخاه العادل، لم تلبث أن تعثّرت بسبب إصرار ريتشارد قلب الأسد على استعادة بيت المقدس والإقليم الواقع غرب الأردن بما فيه من حصون، وصليب الصلبوت، بالإضافة إلى تمُسكه بعسقلان وكلها شروط رفضها صلاح الدين وعرض ريتشارد قلب الأسد بعد بضعة أيام مقترحات جديدة تقضي:

1- بأن يتزوج الملك العادل، أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا، أخت ريتشارد قلب الأسد وأرملة ملك صقلية.

2- يُعطي صلاح الدين أخاه كل ما بحوزته من أراضي في فلسطين، ويمنح

(1) النوادر السلطانية ص 205، الجيش الأيوبي ص 482.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 482.
(3) النوادر ص 210.
(4) الجيش الأيوبي ص 482.
(5) تاريخ الأيوبيين ص 193.
(6) النوادر السلطانية ص 292، تاريخ الأيوبيين ص 194.

ريتشارد قلب الأسد أخته ما بحوزته من المدن الساحلية، بما فيها عسقلان التي احتلها مؤخراً.

3- يقيم العروسان في بيت المقدس، ويتردّد النصارى على كنيسة القيامة.

4- يستعيد النصارى صليب الصلبوت.

5- يُطلق سراح الأسرى من الجانبين.

6- ترُدُّ إلى الداوية والاسبتارية بعض القرى في فلسطين دون الحصون [1].

رحَّب العادل بهذا العرض، ورأى في ذلك "عين الصواب" ولعله هدف إلى توحيد المسلمين والصليبيين في بلاد الشام تحت حكمه، وإقرار الأمور في تلك البلاد على أساس المحبة والارتباط بين الطرفين [2].

ورأى صلاح الدين في هذا العرض نوعاً من المزاح، لكنه أبدى سروره للموافقة عليه، ويبدو أن قبوله بهذا المشروع سببه الاعتقاد بأن ملك إنكلترا لن يتمكن من تنفيذ مشروعه وأن هذا منه هزء ومكر [3] وسرعان ما ظهر أن العقبة في سبيل تنفيذ ذلك المشروع جاءت من جوانا نفسها التي ارتاعت عندما سمعت بهذا العرض وقالت بأنه ليس ثمة ما يدعوها لأن تتزوج من رجل مسلم، مما دفع بريتشارد قلب الأسد أن يطلب من العادل أن يعتنق النصرانية لتذليل تلك العقبة، فرفض العادل ذلك [4].

والحقيقة أن قبول المسؤولين الثلاثة بهذا المشروع، إنما يدل على التقارب السياسي والحضاري في بلاد الشام بعد مرور قرن على بداية الحروب الصليبية بالإضافة إلى روح التسامح التي أخذت تنمو بوضوح في بعض تصرفات الفريقين بدليل أن الملك ريتشارد قلب الأسد اجتمع مع العادل على وليمة فاخرة أقيمت في 18 شوال 588هـ ثم افترقا بعد أن تحقَّقت بينهما أواصر الصداقة وقد أبدى الملك الإنكليزي رغبة في الاجتماع بصلاح الدين، لكن العادل رفض طلبه وقال: إن الملوك إذا اجتمعوا تصبح بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أمر، حسن الاجتماع [5]. ثم شُغل ريتشارد قلب الأسد بحلّ مشاكل الصليبيين وبخاصة الخلاف الحاد بين كونراد دي مونتفيرات وجاي

---

(1) الحركة الصليبية، عاشور (882/2).
(2) النوادر السلطانية ص 293، تاريخ الأيوبيين ص 194.
(3) الجيش الأيوبي ص 482.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 194.
(5) النوادر السلطانية ص 300، 301، تاريخ الأيوبيين ص 194.

لوزينان [1].

عاشراً: فقه سياسي صلاحي مواكب للحرب:

في الوقت الذي كانت تدور فيه المفاوضات مع ريتشارد قلب الأسد، استقبل صلاح الدين رينولد صاحب صيدا، رسولا من قِبَل كونراد دي مونتفيرات، عرض عليه التحالف مقابل حصوله على صيدا وبيروت، بل إنه اقترح أن تعود عكا إلى المسلمين وقد هدف إلى تحويل مسار المفاوضات لصالحه الخاص [2]. وعندما علم ريتشارد قلب الأسد بتحركات كونراد دي مونتفيرات، بذل جهوداً في إعادته إلى الصف الصليبي، غير أن جهوده باءت بالفشل، وكرَّر دي مونتفيرات محاولة التفاهم مع صلاح الدين وعقد صلاح الدين مجلساً لأركان حربه ليقّرر أيَّ جانبي الصليبيين يمضي معه في المحادثات، فرأى الملك العادل وبعض الأمراء الميل إلى المضي في المحادثات مع الملك الإنكليزي لأنه سوف يغادر الشرق، في حين أن كونراد دي مونتفيرات كان ينوي البقاء والاستقرار في فلسطين، فتقرر قبول مقترحات ريتشارد قلب الأسد من حيث [3] المبدأ ومهما يكن من أمر محاولات التفاهم بين المسلمين والصليبيين وما وقع في تلك الأثناء من قتال بينهما، وإن كان محدوداً، لم يعد ثمة ما يدعو إلى التقارب ووصلت في غضون ذلك إلى مسامع ريتشارد قلب الأسد أخبار سيئة من الغرب إذ أن أخيه حنا قام بثورة ضده، مما تطلب منه العودة إلى بلاده بسرعة، لكنه لم يشأ مغادرة الشرق قبل أن يحل مشاكل الصليبيين الداخلية ويتفاهم مع المسلمين وأما المشاكل الداخلية فقد حُلَّت باغتيال كونراد دي مونتفيرات على يد الحشيشية في 13/ربيع الآخر عام 588هـ/28 نيسان عام 1192م[4]، فتخلص ريتشارد قلب الأسد من خصم عنيد وتحكَّم في صور واختار هنري دي شامبانيا لعرض مملكة بيت المقدس بعد أن تزوج من إيزابيلا أرملة كونراد ووريثة عرش المملكة [5]، وأما المشاكل مع الجانب الإسلامي، فقد تطلبت حلاً من نوع آخر يقوم على القوة وتطلع إلى استعادة بيت المقدس، فاستولى على قلعة الداروم في 9 جمادى الأولى/23 آيار، بعد مقاومة من جانب حاميتها، لكنه فشل في الاستيلاء على مجدل يابا، فاتجه إلى عسقلان، ومنها شرع بالزحف نحو بيت المقدس،

(1) تاريخ الأيوبيين ص 195.
(2) النوادر السلطانية ص 285، 286، 297.
(3) تاريخ الأيوبيين ص 195.
(4) النوادر السلطانية ص 31، تاريخ الأيوبيين ص 195.
(5) تاريخ الأيوبيين ص 195.

فوصل في 27 جماد الأولى/11 حزيران إلى بيت [1] نوبة، واستعد صلاح الدين من جهته لمقاومته فسار إلى بيت المقدس.

حادى عشر: تدابير صلاح الدين للدفاع عن القدس:

قام صلاح الدين بتدابير آتية للدفاع عن المدينة المقدسة منها:

1- قسَّم أسوارها على أمرائه وجهَّزهم بما يحتاجون إليه للمقاومة.

2- أفسد مصادر المياه المحيطة بالمدينة بحيث لم يبق حول بيت المقدس ما يُشرب أصلاً، مما سيجعل العدو في حالة عطش شديد إذا حاول الهجوم عليها.

3- استدعى القوات من الأطراف، فجاءه الملك الأفضل مع العساكر الشرقية وبدر الدين دلدرم الياروقي من التركمان وعز الدين بن المقدم [2].

4- قيام فرسان المسلمين بشن غارات مفاجئة وخاطفة على معسكر الصليبيين[3].

ثم عقد صلاح الدين في 19 جماد الآخرة/ أول تموز، اجتماعاً في بيت المقدس، مع أركان حربه للتشاور في أفضل السبل للدفاع عن المدينة في وجه الحشود الصليبية وطلب السلطان من القاضي ابن شداد أن يفتتح الجلسة، فتحدث هذا في بداية كلامه عن فضل الجهاد، ودعاهم إلى الاقتداء بالرسول الأعظم، فاستحسن الجميع كلامه، ثم سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير، وبعد هنيهة شرع صلاح الدين في الكلام وضمن ما قاله: إن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، فإن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم، طوى البلاد كطي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم، فإن أنتم الذين تصديتم لهذا وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام [4] فانتدب لجوابه الأمير سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا، نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلا أن يموت. ووافق على كلام المشطوب بقية الحضور، فسر بذلك السلطان، لكن الأمراء سرعان ما تراجعوا عن موقفهم في اليوم التالي، كما أخبر بذلك أبو الهيجاء فقد أعلنوا من الخطأ أن يحصروا أنفسهم داخل القدس؛ لأنهم يخافون أن يجري عليهم ما جرى على أهل عكا.

---

(1) المصدر نفسه ص 196.
(2) المصدر نفسه ص 196.
(3) المصدر نفسه ص 196.
(4) مفرج الكروب (386/2)، الجيش الأيوبي ص 485.

وأنهم يرون أن يكون لقاؤهم خارج أسوار القدس، وقالوا: إن قدر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى - أي الهزيمة - سلم العسكر ومضت القدس [1]، لم يقتنع صلاح الدين بجواب الأمراء؛ لأن أمر القدس عنده أمر عظيم لا تحمله الجبال، بل إنهم ردوا عليه بخشونة اعتادوا عليها منذ أمد كما ذكرنا، ويبدو أن الصراع بين عناصر جنده وأمرائه من الأكراد والتركمان قد ذر قرنه، وبلغ مستوى خطير وظهر ذلك من كلامهم حين قالوا: إنك إن أردتنا فتكون داخل القدس معنا، أو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك والأتراك لا يدينون للأكراد [2].

والواقع أن صلاح الدين صار في وضع لا يحسد عليه وقد أحس ابن شداد بهذا العجز بوضوح حين طلب منه أن يفوض أمره إلى الله، وأن يعترف بعجزه أمامه فيما تصدى له، لعل الله يستجيب لدعائه وقد رآه المؤرخ وهو يصلي، ودموعه تتقاطر في مصلاه حين يسجد ومر يوم الجمعة الثقيل، ثم جاء رجال استخباراته ليعلنوا أن الصليبيين قرروا إيقاف زحفهم تجاه القدس [3].

يقول ابن الأثير: إن ريتشارد طلب من الصليبيين القدامى "الفرنج الشاميين" أن يصوروا له وضع مدينة القدس، والاستحكامات التي أقامها صلاح الدين حولها، فصوروا له كل ما طلب وحين دقق في وضع المدينة قال: هذه مدينة لا يمكن حصارها ما دام صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة [4].

وهذا الموقف جعل الصليبيين ينقسمون بين من يطالب بالهجوم على القدس وبين من ينادي بالتوقف، وكان ريتشارد مع الفريق الثاني، في حين كان الفرنسيون مع الرأي الأول حين قالوا: نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا نرجع دونها. ورد عليهم ريتشارد: إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟ فقالوا: نشرب من ماء نقوع [5].

الواقعة بالقرب من القدس بمقدار فرسخ ونكتفي بالشرب في اليوم مرة واحدة [6] وقد لجأ الصليبيون إلى مبدأ الانتخاب، وأخذ الأصوات، لتحكيم رأي الأغلبية، فكان

---

(1) مرآة الزمان (416/8)، الجيش الأيوبي ص 485.
(2) النوادر السلطانية ص 217، الجيش الأيوبي ص 485.
(3) الجيش الأيوبي ص 486.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي ص 486.
(5) نقوع: قرية من قرى بيت المقدس.
(6) النوادر ص 217 - 218، الجيش الأيوبي ص 486.

القرار هو إيقاف الهجوم فرحلوا نحو الرملة [1]، وسر بذلك السلطان كثيراً [2].

الثانى عشر: معركة يافا:

تعُد معركة يافا وما نتج عنها، آخر صدام مسلح بارز وقع بين المسلمين وصليبي الحملة الثالثة، وكان ريتشارد قلب الأسد قد اتخذ من هذه المدينة قاعدة لجيشه إثر انتصاره على صلاح الدين في أرسوف، نظراً لقربها من بيت المقدس [3] وفي الوقت الذي كانت المفاوضات دائرة بين الطرفين الإسلامي والصليبي بشأن عقد الصلح، غادر ريتشارد قلب الأسد يافا إلى عكا، وقد أعَّد خطة للإقلاع إلى بلاده إذا لم يتم، حتى وقتذاك، توقيع معاهدة مع المسلمين وتقضي هذه الخطة بالزحف نحو بيروت، ثم يبحر منها إلى أوروبا[4].

وقد هيأ هذا التحرك فرصة لصلاح الدين استغلها في تنظيم حملة على يافا ومن المحتمل أنه استهدف تحقيق أربعة أهداف:

- أنه أراد الحصول على يافا في غياب الملك الإنكليزي.
- أمِل في تحقيق انتصار حاسم على الصليبيين في يافا.
- محاولة رفع معنويات جنوده.
- منع ريتشارد قلب الأسد من احتلال بيروت [5].

وما كان صلاح الدين يقترب من يافا في 15 رجب 588هـ /27 تموز 1192م حتى توجهت رسالة عاجلة إلى ريتشارد قلب الأسد تحمل إليه نبأ الهجوم على يافا، فبادر إلى النهوض لنجدتها متخذاً في تقدمه طريق البحر، يسانده البيزيون والجنويون، بينما أرسل جيشاً بطريق البر، غير أن الرياح العكسية حجزته عند رأس جبل الكرمل، ولم يشأ أفراد الجيش البري أن يبلغوا يافا قبل قدوم ملكهم، لذلك تمهلوا في سيرهم [6] وقد أتاح هذا التطور العسكري فرصة طيبة للمسلمين لتحرير يافا، وفعلاً دخلوا المدينة يوم الجمعة في 18 رجب/30 تموز بعد قتال مرير مع حاميتها وضربوا حصاراً على قلعتها، فاضطر الصليبيون إلى طلب الصلح وفي الوقت المحددَّ لتسليم القلعة إلى

(1) شفاء القلوب ص 175، الجيش الأيوبي ص 487.
(2) الجيش الأيوبي ص 487.
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة ص 199.
(4) تاريخ الأيوبيين ص 199.
(5) المصدر نفسه ص 199.
(6) المصدر نفسه ص 200.

المسلمين هبط ريتشارد قلب الأسد إلى البر وشن هجوماً مضاداً واستطاع دخول المدينة وحمل المسلمين على الخروج منها، وسحب صلاح الدين جيشه من المدينة [1]، وكان المرض قد اشتد على ريتشارد واستمر في إرسال الرسل تتردد على صلاح الدين في طلب الفاكهة والثلج كما أوقعه مرضه في شهوة الكمثرى والخوخ، وكان صلاح الدين بتسامحه يمده بذلك [2]، وجّدد ريتشارد قلب الأسد عرض الصلح على صلاح الدين مدفوعاً بعدة عوامل منها: -

- لقد ألم به المرض واشتد عليه، فتدهورت صحته بشكل ملحوظ حتى عجز عن قيادة قواته، والتخطيط السليم.

- وردت إليه أخبار أخرى مزعجة من إنكترا تفيد بأن أخاه يوحنا ارتكب من الأعمال السيئة ما تتطلب عودة عاجلة.

- انقطاع النجدات العسكرية من أوروبا.

- يئس من استرداد بيت المقدس.

- ما حلَّ بالصليبيين من الإرهاق وما أظهره كل من ابن أخته هنري والطوائف الدينية والعسكرية، من عدم الثقة في سياسته [3].

وأشار صلاح الدين إلى الأسباب التي دعته إلى قبول الصلح ومنها:

- النزاع بين الأكراد والأتراك في جيشه.

- سآمة العساكر ومظاهرتهم بالمخالفة.

- ازدياد قوة العدو.

- خشيته من حدوث الخلاف بعد وفاته داخل أسرته، وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة [4].

الثالث عشر: المفاوضات وصلح الرملة:

استمرت المفاوضات مع الفرنج خمسة عشر شهراً واقتضت 42 وفداً ومفاوضة تتقطع وتتصل وكان البادئ في طلبها دوماً ملك الإنكليز ريتشارد [5] وأهم هذه المراحل

---

(1) المصدر نفسه ص 200.
(2) المصدر نفسه ص 200.
(3) تاريخ الأيوبيين ص 201.
(4) المصدر نفسه ص 201.
(5) صلاح الدين المفترى عليه ص 325.

التي مرت بها المفاوضات حتى توجت بالصلح:

المرحلة الأولى:

بعد عشرة أيام فقط من وصول الملك الإنجليزي ريتشارد بادر بإرسال رسول إلى صلاح الدين وقد سمح للرسول بالتوجه إلى الملك العادل أولاً، فاستصحبه إلى صلاح الدين وكان موجز الرسالة التي أرسلها ريتشارد تتلخص في أن ملك الإنجليز يطلب الاجتماع بصلاح الدين ولما علم صلاح الدين بذلك أجاب دون تردد وقال: إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة أي هدنة، وإذا أراد ريتشارد الاجتماع بصلاح الدين فلابد من تقرير الهدنة قبل الاجتماع ولابد من ترجمان موثوق به بين الطرفين يفهم كل ما يقوله الطرف الآخر، وإذا تقررت الهدنة تم الاجتماع بالملك الإنجليزي. عاد الرسول إلى ريتشارد وعاد مرة أخرى وكان حديثه مع الملك العادل وانتهى الأمر بالاتفاق على اجتماع العادل مع الملك ريتشارد في مرج عكا والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان وعاد الرسول ولكنه تأخر عدة أيام بسبب المرض، والراجح أن ريتشارد هو الذي كان مريضاً وليس الرسول وفي رواية أخرى أن القادة الصليبيين أنكروا فكرة الصلح مع المسلمين وقالوا: هذه مخاطرة بدين النصرانية وقد عاد الرسول مرة أخرى واعتذر عن التأخير بسبب المرض.

ومما قاله الرسول أن "الملوك" إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا وأضاف عندي ما يصلح للسلطان وأنا أستخرج الإذن في إيصاله إليه، فوافق الملك العادل بشرط إرسال هدية في المقابل للملك الإنجليزي، فرضي الرسول وقال: الهدية شيء من الجوارح قد جلبت من وراء البحر، وقد ضعفت فيحسن أن تقدموا لنا طير ودجاج حتى نطعمها فتقوى ونحملها إليكم، فداعبه الملك العادل وقال: الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة، فانقطع الحديث عدة أيام، ثم عاد الرسول ومعه إنسان مغربي مسلم قد أسره الصليبيون من مدة طويلة هدية إلى السلطان فقبله وأطلقه، وأعاد الرسول مكرما [1].

وقد بلور المؤرخ ابن شداد الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء تبادل الرسل، فقال وكان غرض الصليبيين بتكرار الرسائل تعّرف قوة النفس وضعفها عند المسلمين وكان غرض المسلمين بقبول الرسائل تعُرف ما عند الصليبيين من ذلك [2].

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران ص 175.

(2) المصدر نفسه ص 175.

المرحلة الثانية:

ففي التاسع من جمادي الآخرة عام 587هـ/الرابع من يوليو 1191م أثناء القتال في عكا بين المسلمين والصليبيين عندما قررت حامية عكا الإسلامية التخلي عن القتال وأرسلت إلى ريتشارد رفض عرض حامية المدينة، إلا أنه أرسل في اليوم نفسه ثلاثة رسل إلى صلاح الدين يطلبون فاكهة وثلجاً، وقد ذكر الرسل أن مقدم الاسبتارية جارنيه سيحضر في اليوم التالي للتحدث في معنى الصلح وقد أكرم صلاح الدين الرسل وأدخلهم سوق العسكر وشاهدوه وعادوا في اليوم نفسه إلى عسكرهم وقد أعقب ذلك استلام مدينة عكا للصليبيين واستقبال صلاح الدين لسفراء الصليبيين حول تسليم عكا، وهو جانب يتعلق بمدينة عكا فقط، وقد سبق أن أوضحناه ولا يمس جوهر قضية الصلح العامة التي نناقشها على هذه الصفحات [1].

المرحلة الثالثة:

وكانت المرحلة الثالثة من المفاوضات في المرحلة السابقة لمعركة أرسوف، ففي الحادي عشر من شعبان 587هـ/ الثالث من سبتمبر 1191م أتت بعض رسل الصليبيين تطلب التحدث إلى الملك العادل، فسمح لهم وكان حاصل حديث الرسل: "إنا قد طال القتال، وأنه قتل من الجانبين الرجال والأبطال وإنا نحن جئنا في نصرة فرنج الساحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكل منا يرجع إلى مكانه. وعلم صلاح الدين بمضمون أفكار الرسل فكتب إلى أخيه العادل يطلب منه إطالة الحديث مع الرسل حيث تصل النجدات الإسلامية، وفي اليوم التالي اجتمع الملك العادل بالملك الإنجليزي ريتشارد وتولى الترجمة همفري سيدتبنين وسأل العادل ريتشارد عن شروطه حول عقد الصلح، فذكر له "القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا وتنصرفون إلى بلادكم" ومعنى ذلك عودة الحال إلى ما قبل معركة حطين، ولم يقبل الملك العادل مثل هذه الشروط فأخشن للملك الإنجليزي الجواب، وجرت منافرة اقتضت رحيل الملك الإنجليزي ورفاقه ثم كانت معركة أرسوف التي انتصرت فيها القوات الصليبية وإن كان نصراً غير حاسم وبعد ثمانية أيام وأثناء إقامة القوات الصليبية بقيادة ريتشارد في مدينة يافا، وقيام صلاح الدين بتخريب مدينة عسقلان وصل في التاسع عشر من شعبان 587هـ/الحادي عشر من سبتمبر 1191م إلى صلاح الدين من أخبره من جانب الملك العادل أن الصليبيين تحدثوا معه في أمر الصلح وأن شروطهم إعادة جميع البلاد

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 177.

الساحلية، فطلب صلاح الدين من أخيه العادل فتح باب المفاوضات لما رآه في نفوس المسلمين من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة، كما طلب منه أيضاً إطالة أمد المفاوضات حتى يتم تخريب عسقلان، وفي خلال الأيام التالية وقع حادث له مغزاه في تاريخ الحملة الصليبية الثالثة، ففي الثاني عشر من رمضان 587هـ/الثالث من أكتوبر وصلت رسل من جانب كونراد الذي تصفه المصادر العربية باسم المركيس، كونراد قد استشعر أن الصليبيين يريدون الاستيلاء على صور، فانحاز عن قوات الحملة الصليبية الثالثة، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب الصلح مقابل إعطائه صيداً وبيروت، مقابل مجاهرة ريتشارد بالعداوة والسير بقواته إلى عكا ومحاصرتها والاستيلاء عليها، والمعروف أن كونراد كان خبيثاً ملعوناً، لذلك أراد صلاح الدين معرفة حسن نواياه، فطلب منه في بداية الأمر القيام بحصار عكا والاستيلاء عليها، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين في عكا وصور، ثم يقوم صلاح الدين بعد ذلك بتسليمه صيدا وبيروت وفي عشية اليوم نفسه وصلت رسل الملك ريتشارد للحديث مرة أخرى في مسألة الصلح علم ريتشارد بالسفارة التي أرسلها كونراد إلى صلاح الدين، فعاد إلى عكا للعمل على فسخ فكرة المصالحة التي شرع فيها كونراد، والعمل أيضاً على ضم كونراد إلى صفوف القوات الصليبية، ومما شك فيه أن ما حدث جعل صلاح الدين يدرك مدى الشقاق بين الصليبيين المحليين وقوات الحملة الثالثة، كما أدرك ريتشارد أن ما حدث من كونراد يعتبر موجهة إليه وإلى قوات الحملة الثالثة التي عانت وتكلفت الكثير للدفاع عن الصليبيين المحليين وكان لذلك كله أكبر الأثر على سير المفاوضات وشروطها في المراحل المقبلة [1].

المرحلة الرابعة:

وفي الرابع والعشرين من رمضان 587هـ/الخامس عشر من أكتوبر 1191م وصول رسول من قبل الملك الإنجليزي ريتشارد ومعه حصان هدية إلى الملك العادل في مقابل هدية كان قد أرسلها إليه الملك العادل وكان ذلك مقدمة لمفاوضات المرحلة الرابعة، وبعد يومين أرسل ريتشارد يطلب من الملك العادل إيفاد رسوله للتحدث في أمر الصلح، فأجابه العادل إلى طلبه وذهب رسول العادل واجتمع بالملك ريتشارد ومما قاله الملك في طلب الصلح: أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمر حقه وليس

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 177.

هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم. وعندما بلغ الملك العادل ما يطلبه ريتشارد، قام العادل بدوره بإبلاغه إلى صلاح الدين الذي قال في رد الجواب للملك الإنجليزي "القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإن مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها [1].

وبعد ثلاثة أيام عاد رسول الملك ريتشارد من يافا بمقترحات جديدة، وموجز هذا العرض أن يتزوج الملك العادل من جوانا ملكة صقلية السابقة أخت الملك ريتشارد، وأن يكون مستقر ملكهما القدس الشريف وأن يقدم لها ريتشارد بلاد الساحل التي فتحها من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن يعطي صلاح الدين أخاه العادل جميع بلاد الساحل ويجعله ملكا عليها بالإضافة إلى ما في يده من البلاد والأقطاع، وأن يسلم إليه صليب الصلبوت وتكون القرايا للداوية والاسبتارية والحصون لهما، وإطلاق سراح أسرى الجانبين ويرحل ملك إنجلتر إلى بلاده ولما أبلغ صلاح الدين بمقترحات الملك الإنجليزي، بادر بالموافقة معتقداً أن ريتشارد لا يوافق عليه، وأن هذا منه هزو ومكر، أي نوع من المزاح، ولما علمت جوانا باقتراح أخيها زواجها من الملك العادل غضبت وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك، لذلك عرض ريتشارد دخول العادل في الديانة المسيحية ولكن العادل رفض قبول ذلك، وترك باب المفاوضات مفتوحاً [2].

المرحلة الخامسة:

وسارت المرحلة الخامسة من المفاوضات في خطين متوازيين، الخط الأول يتعلق بالمفاوضات مع رسل كونراد، والخط الثاني مرتبط بالمفاوضات مع الملك الإنجليزي ريتشارد، وبدأت هذه المرحلة في الخامس عشر من شوال 587هـ/الخامس من نوفمبر

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 178، كتاب الروضتين (286/4).
(2) المصدر نفسه ص 179.

1191م عندما وصل رينالد جارنييه حاكم صيداً كرسول من جانب كونراد ويفهم من النصوص التاريخية أن المحادثات مع كونراد لم تنقطع، وقد أحسن المسلمون استقبال المبعوث حتى يتم تدبير اللقاء مع صلاح الدين، وبعد أربعة أيام استقبل صلاح الدين رينالد جارنييه وأكرمه إكراماً عظيماً وتصف المصادر الإسلامية كونراد بأنه كان أشد الصليبيين بأسا وأعظمهم في الحرب مراساً، وأثبتهم في التدابير أساساً وكان عرض كونراد يتلخص في تنازل المسلمين له عن صيدا، ويتحالف مع المسلمين ضد قوات الحملة الصليبية الثالثة ويجاهرها بالعداوة وقد استمع صلاح الدين إلى هذه المقترحات من المبعوث ووعده بأن يرد عليه الجواب فيما بعد، وفي اليوم الذي استقبل فيه صلاح الدين مبعوث كونراد، وصل في المساء همفري سيدتبنين كرسول من الملك الإنجليزي ريتشارد فاستقبله صلاح الدين وقدم المبعوث الصليبي مقترحاته والملاحظ أن الحرب ظلت قائمة طوال هذه المشاورات، وفي الرابع من ربيع أول عام 588هـ/العشرين من مارس 1192م خرج العادل من القدس ومعه عرضاً للصلح محدداً يقضي بأنه يمكن للصليبيين أن يضموا إليهم مدينة بيروت إذا أصروا على طلبها بشرط أن تظل خراباً ولا تعمر وكذلك القابون، ويسلم لهم صليب الصلبوت، وأن يعين قسيساً من الفرنجة لكنيسة القيامة، ويفتح للصليبيين أبواب مدينة القدس للزيارة بشرط عدم حمل السلاح [1].

وكان الدافع لهذه المقترحات الجديدة ما عاناه المسلمون من تعب في مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان وزادت رغبة الملك ريتشارد في عقد الصلح والعودة إلى وطنه، عندما وصل إلى معسكره مبعوثاً قادماً من إنجلتر يخبره أن الأمير يوحنا شقيق الملك ريتشارد يتطلع إلى السلطة والسيطرة على إنجلترا ويطالبه باسم كبير وزراء إنجلتر بالعودة إلى البلاد، وقد أقلقت هذه الأخبار ريتشارد يضاف إلى ذلك أنه في حوالي العشرين من مارس 1192م/الرابع من ربيع أول 588هـ قام هيودوق برجانديا الذي كان يتولى قيادة ما تبقى من القوات الفرنسية باستدعائها من معسكر ريتشارد لأن الملك لا يمد هذه القوات بالمواد الضرورية اللازمة للقتال، وفي الشهر التالي اغتيل كونراد كما سبق أن أوضحنا لتبدأ مرحلة أخرى من المفاوضات في ظروف تختلف عن الظروف السابقة، فقد اختفى كونراد عن مسرح السياسة الصليبية، والحالة في إنجلترا أصبحت حرجة وعلى الملك الإنجليزي إنهاء الحرب والعودة إلى

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 181.

بلاده [1].

المرحلة السادسة:

كانت المرحلة السادسة والأخيرة من المفاوضات طويلة ومعقدة فقد استمرت حوالي خمسة شهور [2] وفي 22 شعبان عام 588هـ/2أيلول عام 1192م حمل رسل صلاح الدين العرض النهائي فوقعه ريتشارد قلب الأسد وأثبت هؤلاء أسماءهم إلى جانب اسمه على المعاهدة التي تنص على ما يلي: -

- يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور شمالاً إلى يافا جنوبا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف.
- تكون عسقلان بأيدي المسلمين، على أن يجري تخريبها.
- يتقاسم المسلمون والصليبيون، اللد والرملة، مناصفة.
- يحق للنصارى زيارة بيت المقدس بحريَّة.
- للمسلمين والنصارى الحق في أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الفريق الآخر.
- مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

واشترط صلاح الدين دخول بلاد الحشيشية في الصلح، بمعنى أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء تُعدُّ جزءاً من المناطق الإسلامية التي شملها المعاهدة، وفي المقابل اشترط ريتشارد قلب الأسد دخول كل من صاحب أنطاكية وطرابلس [3].

ولما تمت الهدنة أذن صلاح الدين للصليبيين بزيارة بيت المقدس واختلط عسكر المسلمين بعسكر الصليبيين وذهبت جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة، كما وصل خلق عظيم من الصليبيين إلى القدس للحج وأنفذ صلاح الدين الخفراء يحفظونهم وغرضه من ذلك أن يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعون إلى بلادهم[4].

نتائج الحملة الصليبية الثالثة وأهم الأحداث قبل وفاة صلاح الدين:

1- برحيل ريتشارد قلب الأسد إلى بلاده، بعد صلح الرملة بلغت الحملة الصليبية الثالثة نهايتها، فلن يتوجه إلى الشرق الأدنى الإسلامي مرة أخرى، هذا الحشد

(1) تاريخ الحروب الصليبية ص 182.
(2) المصدر نفسه ص 182.
(3) تاريخ الأيوبيين ص 202، الدبلوماسية الإسلامية ص 394.
(4) صلاح الدين والصليبيون ص 280.

من الملوك والأمراء، ومع أن أوروبا الغربية اتحدت في ذلك العمل، وجهَّز حملة كانت من أكبر الحملات الصليبية، فإن ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً وما حدث من إنقاذ صور على يد كونراد دي مونتفيرات، ومن نجدة طرابلس من قِبل الأسطول الصقلي، إنما جرى قبل وصول أفراد الحملة الصليبية الثالثة، وكل ما أسهم به هؤلاء لم يتعدَّ الاستيلاء على عكا والمدن الساحلية حتى يافا، فضلاً عن جزيرة قبرص، على أن أمراً واحداً قد تحقَّق هو توقف نشاط صلاح الدين في الفتح [1].

2- يعُّد المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة في تاريخ الحروب الصليبية، لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بُذل فيها من جهد ضخم فضلاً عن أنها لم تنجح في تحقيق الهدف الذي جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس من يد المسلمين.

3- شاركت الظروف السياسية والعسكرية التي واجهت هذه الحملة وأحاطت بها في هذه النهاية الفاشلة، إذ ليس في استطاعة جيش تجَّرد من القيادة الموحدة، وفرّقته المنازعات السياسية، وقاتل في أرض أجنبية، أن يحرز النصر على جيوش جمع بينها وحدة الصف والهدف، وانضوت تحت قيادة رجل واحد مثل صلاح الدين.

4- كان من بين عوامل الفشل أن ملكيْ إنكلتر وفرنسا حملاً معهما إلى الشرق ما بينهما من منازعات سياسية محلية، على الرغم من اتفاقهما على التغاضي قبل أن يتحركا من أوروبا الغربية.

5- اختلف الطابع الروحي للحملة، إذ لم يكن للبابا دور كبير في توجيهها، كما حدث في الحملة الصليبية الأولى، وطغى عليها الطابع السياسي بما يحمل من خلفيات متناقضة [2].

6- استمرار تماسك الجبهة الإسلامية بعد أن اختفت المنازعات الدينية والسياسية على الرغم من تراجع قوة المسلمين العسكرية بسبب الإرهاق والتعب، إذ تحتَّم على القوات الإسلامية أن تقوم بأعمال عسكرية مستمرة مدة ثلاث سنوات وفي ظروف غير عادية، بالإضافة إلى ما حصل من تشنِجات سرعان ما أمتعها

(1) تاريخ الأيوبيين ص 204.
(2) المصدر نفسه ص 205.

صلاح الدين بحكمته، نذكر منها النزاع الذي حصل بين العناصر التركية والعناصر الكردية في جيشه [1] ولولا رحمة الله ثم قيادة صلاح الدين لكانت الخسائر كبرى وبشكل غير متصور ولكن حسن قيادة صلاح الدين وصمود المسلّمين في وجه هذه الحملة الشرسة أربك ملوك أوروبا وأفشل مخططاتهم ولم يستطيعوا إرجاع بيت المقدس وهذا يعتبر انتصار عظيم لصلاح الدين على الرغم من الخسائر التي لحقت بالمسلمين.

7- تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين فكان الطرفان شديدي الصلة ببعضهما وتعّدى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة، وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور طبيب صلاح الدين الخاص لمعالجته [2] وكان من هذا الاختلاط في حياة الفرنج ما يأتي: -

أ- نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التي كانت سائدة بينهم في تلك الفترة وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع قوانين في هذه العلوم [3].

ب- نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصباغة والميناء والمعادن والزجاج كما نقلوا عنهم فن العمارة وكان لهذا النقل تأثير عميق في حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية، يقول جوستاف لوبون: ولم يكن تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون أقل من ذلك... ثم يقول: وعن المسلمين أخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة.. ولم يلبث فن العمارة أن تحول في أوروبا تحولاً تاماً [4].

ج- تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها، ولولا الحرب الصليبية لتأخر نمو الحضارة في أوروبا لا يعلمها إلا الله ولقد اعترف المنصفون من المستشرقين بهذه الحقيقة قبل أن يقولها مؤرخو المسلمين[5].

يقول لوبون: ولكنا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التي أسفرت عنها الحروب

(1) تاريخ الأيوبيين ص 205.
(2) المصدر نفسه ص 205، الفتوح الإسلامية عبر التاريخ ص 299.
(3) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ص 218.
(4) حاضرة العرب، ترجمة عادل زعيتر ص 336، 337.
(5) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ص 219.

الصليبية، تجلت لنا أهمية تلك النتائج، فقد كان اتصال الغرب بالشرق مدة قرنين - أي مدة التواجد الصليبي في بلاد المسلمين - من أقوى العوامل على نمو الحضارة في أوروبا، وتكون الحروب الصليبية قد أدت بهذا إلى نتائج غير التي نشدتها فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل المسلمين - وأما الغرب، فكان غارقاً في بحر الهمجية [1].

ذلكم هو ما أفادته أوروبا من الحروب الصليبية، وهي، وإن منيت بخسائر فادحة وهزائم قاتلة، لم تحقق الهدف الذي جاءت من أجله، وهو استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين إلا أنها كسبت من وراء ذلك هذه المكاسب العظيمة التي نهضت بأوروبا وأسرعت في إيصال الحضارة إليها [2] وأما المسلمون فإنه لم يكن لدى الصليبيين ما يمكن أن يستفيد منه المسلمون، فقد كانوا في سلوكهم وحوشا ضارية، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على حد سواء [3]. ولقد وصف أسقف عكا الصليبي جاك دوفيتري الغزاة بقوله: وكان لا يُرى منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين، والمهرجين والرهبان والدّعار والراهبات العواهر [4] وكان مع الحملة الصليبية جيش العواهر الذي جلب خصيصاً للترفيه عن المقاتلين، لم يقتصر على جنود الصليبيين، ولكنه تعدى ذلك إلى صفوف الفجرة والفسقة من المسلمين [5].

يقول ابن كثير: وأمداد الفرنج تصل من البحر من كل وقت حتى إن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال ومنهن من تأتي بنية راحة الغرباء، لينكحوها في الغربة، فيجدون راحة وخدمة وقضاء وطر، فإذا وجدوا ذلك ثبتوا على الحرب والغربة، حتى إن كثيراً من فسقة المسلمين تحيزوا إليهم من أجل هذه النسوة، واشتهر الخبر بذلك [6].

وذكر المؤرخ أبو شامة من أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا: أن وصل مركب فيه ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعت من جزر البحر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن

---

(1) حضارة العرب ص 223، 224.
(2) أسباب الضعف في الأمة الإسلامية ص 219.
(3) المصدر نفسه ص 220.
(4) المصدر نفسه ص 222.
(5) المصدر نفسه ص 222.
(6) البداية والنهاية نقلاً عن أسباب الضعف في الأمة ص 222.

عن العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القُربان، وزعمن أن هذه قربة، ما فوقها قربة، ولاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزوبة [1] ويقول أيضاً: وخرجت النساء للإسهام في الحملة الصليبية الثالثة فمنهن من خرج وقد لبسن الدروع، وكنّ في زي الرجال للاشتراك في المعارك بأنفسهن، لاعتقادهن أن ذلك عبادة [2]، ومنهن من خرجن لإسعاف الغرباء، وإسعاد الصليبيين بتسبيل أنفسهن للاستمتاع بهن حتى لا يتسرب الملل إلى نفوس المحاربين [3].

8- فقه المصالح والمفاسد:

جاء صلح الرملة بسبب ظروف عسكرية واقتصادية جعلت صلاح الدين يقبل به، مع علمه بأن الموقف الفرنجي كان ضعيفاً، فقد كانت تقديرات رجاله ومستشاريه بأن مغادرة القوى العسكرية الفرنجية إلى بلادهم هي من صالحهم، وأن بقاءهم سيؤدي إلى قدوم قوات أوروبية جديدة ستحدث الضرر بالمعسكر الإسلامي [4].

وإذا نظرنا في تاريخ المعاهدات والاتفاقات والهدن التي عقدها المسلمون مع الفرنج، كعماد الدين ونور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين نلاحظ أنها كانت محددة الأهداف وهو إعطاء فرصة للقوات الإسلامية للاستعداد وزيادة إمكاناتها القتالية للقيام بجولة أو جولات قادمة ضد الفرنج.

ومعظم هذه الاتفاقات كانت بطلب من الفرنج أنفسهم ولم يكن الزعماء المسلمون يتوانون عن عقدها، لما فيها من مصلحة لهم، إما لمحاربة إمارات أخرى لم تعقد معهم المعاهدات، أو للتسهيل على المسلمين وحرية تنقلهم وسفرهم بين مصر وبلاد الشام، ولتسهيل مهمة تنقل القوافل التجارية عبر المنطقة العربية أو لتوفير الأمن والاطمئنان لقوافل الحجاج لأداء مناسك الحج دون خطر، وأما الصلح الأخير وهو صلح الرملة، فقد حدد بثلاث سنوات، ووجد صلاح الدين ومستشاروه أن المصلحة في عقده بسبب سوء الأحوال الصحية التي ألمت بجنده بالإضافة إلى الإرهاق والتعب الذي عانوه، فكانوا يرون أنها فرصة للاستعداد لجولات ومعارك قادمة [5] فابن شداد يقول: ورأى السلطان ذلك مصلحة لما غشي الناس من ضعف وقلة النفقات والشوق إلى الأوطان... فرأى أن

(1) كتاب الروضتين (149/2)، الجهاد والتجديد ص 281.
(2) الجهاد والتجديد ص 281.
(3) المصدر نفسه ص 281.
(4) معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج ص 43.
(5) المصدر نفسه ص 57.

يجمهم مدة حتى يستريحوا وينسوا هذه الحالة التي صاروا إليها ويعمر البلاد، ويشحن القدس بما يقدر عليه من الأسلحة ويتفرغ لعمارته [1].

ويذكر ابن شداد كذلك أن صلاح الدين لم يكن راضياً عن هذا الصلح، ولكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر، ومظاهرتهم بالمخالفة، ويرى ابن شداد أن الصلح كان في مصلحة المسلمين، لأن صلاح الدين توفي بُعيد عقده؛ ولو اتفقت وفاته أثناء المعارك المحتدمة بين المسلمين والفرنج، لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة [2].

9- مقتل ريتشارد قلب الأسد:

بعد صلح الرملة أبحر ريتشارد من عكا عائداً إلى بلاده وغرقت سفينته في البحر واستطاع أن يصل إلى الشاطئ سالماً، ثم توغل في أرض النمسا متنكراً، حتى اكتشف أمره في إحدى الحانات بالقرب من مدينة فيينا في 11 كانون الأول ديسمبر 1192م فاقتيد إلى ليوبولد دوق النمسا الذي اتهمه بقتل المركيز كونراد مونتفرات وأراد الدوق أن يبيعه فتقدم أعداؤه لشرائه إلا أنه ما لبث أن سلمه هنري السادس إمبراطور الدولة الجرمانية المقدسة فبقي في أسره حتى دفع فدية كبيرة [3]، وقد أطلق سراح ريتشارد قلب الأسد في آذار مارس 1194م، وظل يقاتل خصومه من الأمراء حتى أصيب بسهم قاتل فقضى نحبه في 26 آذار عام 1199م [4].

10- طلبات من ديوان العزيز:

وبعد خراب عسقلان وصل من دمشق كتاب من النواب بها وفي طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي يتضمن فصولاً ثلاثة: الأول: الإنكار على الملك المظفر في مسيره إلى بكتمر. والثاني: الإنكار على مظفر الدين في مسك حسن بن قفجاق والأمر بإعادته إلى الكرخاني. الثالث: فيه الأمر بإحضار القاضي الفاضل إليهم ليقال له أشياء، فأجاب السلطان عن الأول بأنا لم نأمره بذلك، وعن الثاني بأن ابن قفجاق لا يخفى ما تصدى له من الفساد في الأرض، وعن الثالث بأنه كبير الأمراض وقوته

(1) النوادر السلطانية ص 233.
(2) النوادر السلطانية ص 235، معاهدات الصلح والسلام ص 58.
(3) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي ص 329.
(4) المصدر نفسه ص 329.

تضعف عن الحركة [1] إلى العراق. وكتب القاضي الفاضل في الاعتذار بالحضور إلى الدّيوان تمثل في كتابه بهذين البيتين:

ما كنت أول سارٍ غرَّه قَمَرٌ ::: ورائد خدعته خُضْرَةُ الدِّمَنِ
مَثِّلْ لنفسكَ شخصي إنني رجلٍ ::: مِثلَ المُعَيْدِي فاسمع بي ولا تَرَنِي[2]

11- ما قاله الرشيد ابن النابلسي في قصد الفرنج للسلطان بالقدس:

من جملة قصيدة:

ويح الفرنجة بل أمّهم أَوَما ::: فيهم لبيب على العِلات يعتبر
فكم نَثَرْتَهُمُ ضربا إذا انتظموا ::: وكم نظمتهم طعناً إذا انتشروا
كم قد سَقَيْتَهُمُ ذُلاً فلا عجب ::: إن عربدوا سفها بالقوم قد سَكِرُوا
إن يَمَّموك فلا بدعٌ لجهلهم ::: تسعى إلى الأسد في غاباتها الحُمرٌ
زاروا غموراً ولا تُغني وقاحتهم ::: إذا أُسودك في أبطالهم زأروا
فَحَامِ عن حوطة البيت المقدس لا ::: خوفٌ وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصماً ::: فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الأيام هَفْوَتَها ::: وتحصد الفئة الأوغاد ما بَذَرُوا [3]

12- وقال أبو الحسن ابن الساعاتي في مدح صلاح الدين:

مُنعتَ ظِبَاءُ المُنحنى بأسوده ::: وأشد ما أشكوه فَتك ظِبائه
فَعَلتَ بنا وهي الصَّديق لحاظُها ::: كُظبَى صلاح الدين في أعدائه
سَلْ عنه قلب الإنكتار فإنّ في ::: خفقانه ما شئت من أبنائه
لولاك أمَّ البيتَ غير مُدافعٍ ::: ولسال سيل نَدَاك في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دماً ::: لترنُّم النّاقوس في أفنائه [4]

13- تحصين القدس وتفقد أحوالها بعد الصلح:

قال العماد: عاد السلطان بعد السّلم إلى القدس لتفقُّد أحواله، وعرض رجاله، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه، وزاد في وقف المدرس سوقا بدكاكينها، وأرضاً ببساتينها وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها، والوقف الكافل بكفايتها، وعيَّن الكنيسة التي في شارع قمامة

(1) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (205/24)
(2) كتاب الروضتين (285/4).
(3) المصدر نفسه (290/4).
(4) كتاب الروضتين (329/4).

للبيمارستان ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان وأدار سور القدس على قبة صهيون، وأضافها إلى المدينة، وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمَّم العزم على الحج، فلم يوافقه القدر وتأسف على فواته بعد أن قَدم مقَّدماته وأقام شهر رمضان وأفاض الإحسان، وقوض ولاية القدس وأعمالها إلى عزّ الدين جُرْديك حين استعفى منها حسام الدين سياروخ، وولىَّ مملوكه علم الدين قيصر مادون القدس، كعمل الخليل وغزَّة والدَّاروم وعسقلان [1].

اعتراض القاضي الفاضل على صلاح الدين في رغبة الحج:

ولما بلغ القاضي الفاضل من قِبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيراً بتبطيله إنّ الفرنج لم يخرجوا بعد من الشَّام ولا سَلُوا عن القدس، ولا وُثِقَ بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سُلطاننا سفراً مقدراً معلوماً مُدَّة الغيبة فيه أن يَسْرُوا ليلة فيصبَّحوا القدس على غفلة، فيدخلوا إليه - والعياذ بالله - ويَفْرُطُ من يد الإسلام ويصيُر الحج كبيرة من الكبائر التي لا تُغفر، ومن العثرات التي لا تُقال ثم قال: وحاج العراق وخراسان أليس هم مئتي ألف أو ثلاث مئة ألف أو أكثر، هل يؤمن أن يقال قد سار السلطان لطلب ثار وسَفْكِ دم وتشويش موسم، فاقْعُدوا، فيكون تاريخ سوءٍ، أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع، ولا مستبعدة من العقول السخيفة... يا مولانا، مظالم الخلق كَشْفُها أهم من كل ما يُتَقَربَّ به إلى الله، وما هي بواحدة، في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يُستغرب معه وقوع القَطرْ، ومن تسلط المُقطعين على المنقطعين من لا ينادي وليدُه وفي وادى بَرَدى والزّبَدَاني من الفتنة القائمة والسيف الذي يَقْطُر دماً مالا زاجر عنه، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة، ومن المهمَّات إقامة وجوه الدَّخل وتقدير الخرّج بحسبها، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل، وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير، وعَرضَت للمولى شواغلٌ دونه ومشت الأحوالٌ مشيا على ظلعْ، فلما خَلَتٍ النُّوَب - أعاذ الله من عودها - كان خلو بيتِ المال أشدَّ ما في الشدة، وليس المملوك مطالباً بذخيرة تُحصَّل، إنما يطلب تمشية من حيث تستقر [2] وهذه الرسالة تدل على عمق فهم القاضي الفاضل بمقاصد الشريعة كما تبين أهمية وجود العلماء الربانيين بجانب القادة السياسيين والعسكريين.

---

(1) المصدر نفسه (332/4).
(2) كتاب الروضتين (334/4).

وقد استجاب السلطان صلاح الدين لنصيحة القاضي الفاضل فسمع منه وشكر نصحه وقبله وعزم على ترك الحج عامّه ذلك وكتب به إلى سائر الممالك واستمر السلطان مقيماً بالقدس جميع شهر رمضان في صيام وصلاة وقرآن، وكلَّما وفد أحدٌ من رؤساء النصارى للزيارة أوْلاه غاية الإكرام والإحسان؛ تأليفاً لقلوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الإيمان ورغبة أن يدخل في قلوبهم شيء من الإيمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة القُمامة متنكراً ويحضر سماط السلطان فيمن يحضر من جمهورهم، بحيث لا يرى والسلطان يعلم ذلك جملة لا تفصيلاً، ولهذا يعاملهم بالإكرام، ويُريهم صفحاً جميلاً وبَّرا جزيلاً وظلاً ظليلاً [1].

14- رجوعه إلى دمشق:

ولما كان خامس شوّال سنة 588هـ ركب في عساكره وجحافله فبرز من القدس الشريف قاصداً دمشق المحروسة، واستناب على القدس عز الدين جُرديك وعلى قضائها بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعي واجتاز [2]، وبات على بركة الدَّاويَّة، ثم أصبح في نابلس فنظر في أحوالها وأمورها، ثم ترحَّل عنها، فجعل يمر بالمعاقل والحصون والبُلدان للنظر في الأحوال والأموال وكشف المظالم والمحارم والمآثم وترتيب المكارم، وفي أثناء الطريق جاء إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية فأكرمه وأحسن إليه وأطلق له أموالاً جزيلة وخلعاً جميلة وكان العماد الكاتب في صحُبته، فأخبر عن منازله منزلة منزلة ومرحلة مرحلة إلى أن قال: وعبر يوم الإثنين عين الجّرّ [3] إلى مرج يَبُوس [4]وقد زال البُوس وهناك توافد أعيان دمِشق وأماثِلهُا وأفاضلها وفواضلها ونزلنا يوم الثلاثاء على العّرادة [5]، جرى المثْلفُون بالطرق والتحف على العادة، وأصبحنا يوم الأربعاء - يعني سادس عشر شّوال بكرة - إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لولا أننا غير خالدين وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها وأبرزت نساءها ورجالها وكان يوم الزينة وخرج كل من في المدينة وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحاً، واجتمع بأولاده الكبار والصغار، ووفد عليه رسل الملوك من سائر الأقطار، وأقام بقية عامه في اقتناص الصيد وحضور

---

(1) البداية والنهاية (646/16).
(2) حضان يقال لهما الحبيب الفوقاني والتحتاني من أعمال فلسطين.
(3) عين الجر: موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق.
(4) مرج يبوس: يبوس جبل بالشام بوادي التيم من دمشق.
(5) العرادة: قرية على رأس تل شبه القلعة بين رأس عين ونصيبين.

دار العدل للفصل والعمل بالإحسان والفضل ولما كان عيد الأضحى امتدحه بعض الشعراء بقصيدة يقول فيها:

وأبيها لولا تغزُّلُ عينيها ::: لما قلت في التغزَّل شِعرا
ولكانت مدائح الملك الناصر ::: أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبَّقَ الممالكِ عدلاً ::: مثل ما أوسع البريَّة برًّا
فتحَلَّ الأعياد صوماً وفطراً ::: وتَلَقَّ الهَنَاءَ برًّا وبحرا
يا مُسِرَّ الطاعات لله إن ::: أضحى مليك على الهَنَاتِ مُصِرًّا
نِلْتَ ما تبتَغي من الدين والدنيا ::: فتيها على الملوكِ وفخرا
قَد جمعت المجدين أصلاً وفرعاً ::: وملكت الدارين دنيا وأخرى [1]

15- اتهام أمير الحج بمكاتبة صلاح الدين ضد الخليفة:

في سنة 588هـ اتهم أمير الحج ببغداد وهو طاشتكين - وقد كان على إمرة الحجيج من مدَّة عشرين سنة وكان في غاية حسن السيرة بأنه يكاتب صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليأخذها فإنه ليس يرده أحد وقد كان مكذوب عليه في ذلك ومع هذا حُبس وأُهين وصودِر [2].

16- وفاة الشاعر أبو المرهف نصير بن منصور النميري:

توفي في عام 588هـ أبو المرهف النميري، فقد سمع الحديث واشتغل بالأدب، وكان قد أصابه جُدَرِيٌّ وهو ابن أربع عشرة سنة فنقص بصره، فكان لا يُبصِرُ الأشياء البعيدة ويرى القريب منه، ولِكنَّه لا يحتاج إلى قائد، فارتحل إلى العراق لمداواة عينيه فآيسته الأطباء من ذلك، فاشتغل بحفظ القرآن ومصاحبة الصالحين والزهاد فأفلح، وله ديوان شعر كبير حسن وقد سئل مرّة عن مذهبه واعتقاده فأنشا يقول:

أحُبُّ علياً والبَتُولَ ووُلْدَها ::: ولا أجْحَدُ الشيْخَينِ فضْل التقدم
وأبرأ ممّن نال عثمان بالأذى ::: كما أتبَرَّا من وَلاءِ ابن مُلجم
ويعجبني أهلُ الحديث لصِدقهم ::: فلستُ إلى قوم سِوَاهم بُمنتَهي [3]

ومن شعره قوله:

وزهَّدني في جميع الأنام ::: قِلّة إنصاف من تَصْحَبُ
هم الناس ما لم تُجَرِّبَهُمُ ::: وطُلْسُ الذّئاب إذا جُرِّبوا

(1) البداية والنهاية (647/16).
(2) البداية والنهاية (648/16).
(3) البداية والنهاية (650/16).

وليتـــك تَسْـــلم عنـــد البعـــاد ::: منـــهم فكيـــف إذا تَقْـــرُبُ[1]

مرض صلاح الدين ووفاته عام 589هـ:

1 - الأيام الأخيرة من حياة صلاح الدين:

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه والضيوف في فيوض إنعامه عائمون والفقراء في رياض صدقاته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لإسداء الجود، وإبداء السعود، وبث المكارم، وكشف المظالم وبرز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوماً واستصحب معه أخاه العادل وأبعد في البَرِّيَّة وظهر عن ضَمير ضُمَير إلى الجهة الشرقية وطابت له الفرص، ووافق مراده القنص ثم عاد يوم الإثنين حادي عشر صفر، ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتَّلَقِّي وسعادته في التَّرَقِّي ولما لقي الحُجَّاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ما تمَّناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها وكم وصَلَهم من غَلاَّت مصر وصدقاتها والفقراء والمجاورين ورواتبها وإداراتها، وسُرَّ سلامة الحاج ووضوح ذلك المنهاج ووصل من اليمن ولدُ أخيه سيف الإسلام، فتلقاه بالإكرام[2].

2 - مرض صلاح الدين:

لما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، فما انتصف الليل حتى غشيته حُمَّى صفراوية كانت في بطنه أكثر منها في ظهره وأصبح يوم السبت سادس عشر صَفَر عليه أثَر الحُمىَّ ولم يظهر ذلك للناس، لكن حضر عنده القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل ودخل ولده الأفضل، قال القاضي ابن شداد: وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه بالليل وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطَّعام في خدمة ولده الأفضل ولم يكن للقاضي عادة بذلك، فانصرف ودخلت إلى الأبواب القِبْلى، وقد مُدَّ الطعام وولده الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت، وما كان لي قوة للجلوس استيحاشا وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردُّد في طَرَفي النَّهار، وأدخل إليه وأنا والقاضي الفاضل في النَّهار مراراً، ويُعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خِفَّة وكان مرضه في رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة

---

(1) كتاب الروضتين (356/4).
(2) المصدر نفسه (357/4).

طبيبه الذي كان قد ألف مِزاجه سفراً وحَضَراً ورأى الأطباء فَصْدَه ففصدوه في الرّابع، فاشتَّد مرضه، وقَلَّت رطوبات بدنه وكان يغلبه النَّفَس غلبة عظيمة، ولم يَزَل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخَّدة وأُحضر ماء فاتر يشربه عقيب شراب يُلَيِّن الطبع، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شِدَّة حرّه فغيرٌ وعُرض عليه ثانياً، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات: سبحان الله لا يمكن أحداً تعديل الماء. فخرجت أنا والقاضي من عنده، وقد اشتدَّ منّا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي: أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أنَّ هذا بعض النَّاس كان قد ضرب القدح رأس من أحضره.

واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل متزايداً وتغيّب ذهنه ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف في البلد وخاف الناس، ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لايمكن حكايته ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثُلُثُهُ، أو قريب منه ثم نحضر من باب الدار، فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلا تعَّرفنا أحواله وانصرفنا وكُنَّا نجد الناس يرتقبون خروجنا من بيوتنا حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا [1].

ولما كان العاشر من مرضه حُقن دفعتين وحصل من الحقُنة راحة وحصل بعض الخفّ، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا باب الدّار فوجدنا جمال الدولة إقبالاً، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجّددة، فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظمّ تورانشاه يقول: إن العَرَق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية بدنه ويخبرنا بحاله في العرق، فافتقده ثم خرج إلينا، وذكر أن العَرقَ سابغ، فشكرنا الله تعالى على ذلك، وانصرفنا طيَّبة قلوبنا ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا بالباب، وسألنا عن الأحوال، فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفَرش، ثم في الحُصْرِ وتأثرت به الأرض، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً، وخارت القوّة واستشعر الأطباء [2].

---

(1) النوادر السلطانية ص 419.
(2) المصدر نفسه ص 419.

3 - تحليف الملك الأفضل الناس:

ولما رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده، وتحقّق اليأس منه، وشرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة، وعُمل له نسخة يمين مختصرة مُحَصّلة للمقاصد، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته، وله بعد وفاته، واعتذر للنّاس بأن المرض قد اشتدّ وما نعلم ما يكون، وما تفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك [1] وكانت نسخة اليمين المحلوف بها وفضولها: إنني من وقتي هذا قد أصفيتُ نيَّتي، وأخلصت طويَّتي للملك الناصر مدة حياته، وإنني لا أزال باذلا جهدي في الذَّب عن دولته، بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه ثم من بعده لولده الملك الأفضل عليّ، ووالله إنني في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، وأمتثل أمره ونهيه، وباطني وظاهري في ذلك سواء والله على ما أقول وكيل[2].

4 - وفاته - رحمه الله:

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وهي الليلة الثانية عشر من مرضه - رحمة الله عليه - اشتّد مرضُه وضعفت قوته ووقع في أوائل الأمر من أول الليل، وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزَّكي، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأيا، فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظروا نزولنا في القلعة، فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاّسة، وهو رجل صالح يبيت في القلعة حتى إن احتضر - رحمة الله عليه - بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكرّ بالشهادة وذكر الله تعالى، ففعل ونزلنا وكل منا يودّ فداءه بنفسه وبات في تلك الليلة - رحمة الله عليه - على حال المُنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكّره بالله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع، ولا يكاد يفيق إلا في الأحيان. وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى:**{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}** (الحشر، آية: 22). سمعه وهو يقول - رحمة الله عليه -: "صحيح"؛ وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى

---

(1) المصدر نفسه ص 420.

(2) النوادر السلطانية ص 421.

به فلله الحمد على ذلك [1].

وكانت وفاته - رحمة الله عليه - بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء سابع وعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح وفاته - رحمة الله عليه - ولقد حكي لي أنه بلغ لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى:**{لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْـتُ}**. تبَّسم وتهلّلَ وجهُهُ وسَلمَّها إلى ربه [2] وكان يوماً لم يُصَبِ الإسلام والمسلمون بمثله منذ فُقِد الخلفاء الراشدون وغِشِيَ القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله [3]، قال القاضي بن شداد: وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فِدَاء من يعزُّ عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسى ومن غيري أنّه لو قُبِلَ الفداء لفُدِيَ بالنفس [4].

5 - الجلوس للعزاء ودفنه :

ثم جلس ولده الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي، وحُفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين، وكان يوماً عظيماً قد شغل كلَّ إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحُفِظَ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فصَّال [5]، أوَ وعّاظ وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تُزهق لهول منظرهم، ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظُّهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكَّنَّا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبّة واحدة إلا بالقرض حتى في ثمن اللَّبن الذي يُلَثُّ به الطِّين وغَسَّله الدّولعي الفقيه ونُدبت إلى الوقوف على غُسْله فلم يكن لي قوة تحمُّل ذلك المنظر، وأخرج بعد صلاة الظُّهر في تابوت مُسَجّىً بثوب فوط وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره الفاضل من وجِه محل عَرَفَه وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم الضَّجيج حتى إن العاقل يتخَّيل أن الدّنيا كلها تصبح صوتاً واحداً، وغِشِيَ الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصَّلاة، وصلىَّ عليه الناس أرسالا وكان أول من أمّ

(1) المصدر نفسه ص 422.
(2) المصدر نفسه ص 422.
(3) المصدر نفسه ص 422.
(4) المصدر نفسه ص 422.
(5) الفصال: مدح الناس ليصلوه.

الناس القاضي محي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدار التي في البستان التي كان متمرضاً بها ودفن في الضفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النّهار ولده الظَّافر، وعزّى النّاسَ فيه وسكّن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنّهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزين، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ولم يَعُدْ منا أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا وقرأنا وجّددنا حالا من الحُزن واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى إخوته وعمّه يخبرهم بهذا الحادث وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما، وأطلق باب القلعة للفقهاء، والعلماء، وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر، ثم انفضَّ المجلس في ظهيره ذلك اليوم واستمر الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمه الله [1].

وقال ابن كثير:.. ثم عمل عزاؤه بالجامع الأمويّ ثلاثة أيام، يحضره الخواص والعوام والرعية والحكام وقد عمل فيه الشعراء مراثي كثيرة من أحسنها ما عمل العماد الكاتب في كتابه "البرق الشامي" وهي مائتنان واثنان وثلاثون بيتاً [2].

6 - سيف صلاح الدين في قبره:

ويقال: إنه دُفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد وذلك عن أمر القاضي الفاضل أحد الأجواد الأمجاد، وتفاءلوا بأنّه يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنَّة، لما أنعم عليه من كسر الأعداء ونصر الأولياء وأعظم عليه بذلك المنة [3].

7 - وصية صلاح الدين لابنه الملك الظاهر:

أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير وآمرك بما أمرك الله به، فإنه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها، فإن الدم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم، فأنت أمين وأمين الناس عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء، وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بغلت إلا بمداراة الناس ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يبقي على أحد، وأحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا

(1) النوادر السلطانية ص 423.
(2) البداية والنهاية (653/16).
(3) المصدر نفسه (653/16).

برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه، فإنه كريم [1].

8 - ما خلّف من التركة:

لم يترك في خزانته من الذهب سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً، وقيل سبعة وأربعين درهماً، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستانا ولا شيئاً من أنواع الأملاك[2]، وإنما لم يُخلِف أموالاً ولا أملاكاً؛ لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وإحسانه إلى أمرائه ووزرائه وأوليائه حتى إلى أعدائه وقد كان متقلّلا في ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف ولا يُعرَفُ أنه تخطىَّ مكروها بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همُّه الأكبر ومقصوده الأعظم نصرَ الإسلام وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك ورأيه وحده مع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وجهاراً وهذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد، في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل: إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها وختامها وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في جماعة ولم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيُصلّى به، فكان يتجشُم القيامَ مع ضعفه [3].

9 - من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين:

قال صاحب النجوم الزاهرة: وفي ساعة موت السلطان صلاح الدين كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}** (الأحزاب، آية: 21) **{إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}** (الحج، آية: 1). كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف للملك المرحوم، وقد زلزل المسلمون زلزالاً عظيماً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد قبلت أباك ومخدمي وداعاً لا تلاقي بعده وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولاقوة إلا بالله، وبالباب جنود مجندة، والأسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء، ولايرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرُضي الرب، وإنا عليك يا يوسف

---

(1) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (216/16).
(2) البداية والنهاية (655/16).
(3) البداية والنهاية (656/16).

لمحزونون، وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما فقدتم إلا شخصه الكريم وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام [1].

10 - رؤيا مبشرة:

قال أبو شامة في كتابه الروضتين: ووجدت في بعض الكتب الفاضلية أن رجلاً رأى ليلة وفاة السلطان كأنَّ قائلاً يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السجن وهو من الأثر النبوي: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»** [2]. وما كان يوسفنا - رحمة الله عليه - في الدنيا بالإضافة إلى ما صار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة، فهو آخر ما كان يرجو من الفتوح [3].

11 - قصيدة العماد الأصفهاني في رثاء صلاح الدين:

شَمْلُ الهُدى والمُلكِ عَمَّ شَتَاتُهُ ::: والدَّهرُ ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مُذْ لم يَزَل مخشيَّة ::: مرجَّوة هبّاتُهُ وَهِبَاته
أين الذي كانت له طاعاتنا ::: مبذولةً ولرَبِّهِ طاعاته
بالله أين النّاصر الملك الذي ::: لله خالصةٌ صفت نيّاتُهُ
أين الذي ما زال سُلطاناً لنا ::: يُرجى نَدَاه وتُتَّقى سَطَواتُهُ
أين الذي شَرُفَ الزَّمان بفضله ::: وسَمَتْ على الفُضَلاء تشريفاته
أين الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأسه ::: ذُلا ومنها أدركت ثاراته
أغلالُ أعناق العِدَى أسيافه ::: أطواق أجياد الورى مِنّاتُهُ
لم يُجْدِ تدبيرُ الطَّبيب وكم وكم ::: أجدت لطبِّ الدَّهر تدبيراته
مَنْ في الجهاد صِفَاحه ما أغمدت ::: بالنصر حتى أُغمدت صفحاته
من في صدور الكفُر صدرُ قَناتِهِ ::: حتى توارث بالصِّفيح قَنَاتُهُ
لَذَّ المتاعب في الجهاد ولم تكن ::: مُذ عاش قَطُّ لذاتِهِ لَذَّاتُهُ
مسعودةٌ غدواتُهُ محمودةٌ ::: روحاته ميمونة ضَحَواتُهُ
في نصرة الإسلام يسهُر دائماً ::: ليطول في روض الجنان سُُبَاتُهُ
لا تحسبوه مات شخص واحدٌ ::: فممات كلّ العالمين مماته
مَلِكٌ عن الإسلام كان محامياً ::: أبداً لماذا أسلمته حُمَاتُهُ
قد أظلمت مُذ غاب عنها دُوُره ::: لما خلت من بدره دَارَاتُهُ

---

(1) النجوم الزاهرة (52/6، 53).
(2) مسلم رقم 2956.
(3) كتاب الروضتين (370/4).

دُفن السَّماحُ فليس تُنشَرُ بعدما ::: أودى إلى يوم النُّشور رُفاتُهُ
الدين بعد أبي المظفَّر يوسف ::: أقوَت قُواه [1] وأقفرت ساحاته
جبلٌ تضعضع من تَضَعضعِ رُكنه ::: أركانُنا تَهُدُّنا هدّاتُهُ
ما كنت أعلم أنّ طوداً شامخاً ::: يَهْوي ولا تَهْوي بنا مَهْوَاتُهُ
ما كنت أعلم أنَّ بحرَ طامياً ::: فينا يُطَمُّ وتنتهي زَخَراتُهُ
بحرٌ خلا من وارديه ولم تَزَل ::: محفوفةً بوفوده حافَاتُهُ
من لليتامى والأرامل راحمٍ ::: متعطّفٌ مفضوضة صَدَقاتُه
فعلى صلاح الدين يوسُفَ دائماً ::: رضوانُ ربِّ العرش بل صَلَوَاتُهُ
لضريحه سُقْيا السَّحاب فإن يَغِبْ ::: تحضُر لرحمة ربه سُقْياتُهُ
وكعادة البيت المقَّدسِ يحزُنُ ::: البيت الحرامُ عليه بل عرفاته
من للثغور وقد غدَاها حِفظُهُ ::: من للجهاد ولم تَعُدْ عاداتُهُ
بكت الصَّوارمُ والصّواهلُ إذ خلت ::: من سَلّها وركوبها غزواته
وبسيفه مدأٌ لُحزن مصُابه ::: إذ ليس يُشفى بعده صَدَيَاتُهُ
يا وحشتاً للبيض في أغمادها ::: لا تنتفيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت ::: في كل قلب مؤمن رَوْعَاتُهُ
يا حسرتا من يأسِ راجيه الذي ::: يُقضى الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه ::: أسدٌ وإنَّ بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى ::: فكأنَّما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السَّبت وهو لما به ::: يُبدي السُّباتَ وقد بَدَتْ غشياتُهُ
والبشرُ منه تَبلَّجَت أنوارُهُ ::: والوجه منه تلألأت سُبحُاتُهُ
ويقول لله المهيمن حُكُمهُ ::: في مرضةٍ حَصَلَت بها مَرْضَاتُهُ
وقف الملوكُ على انتظار ركوبه ::: لهمُ ففيم تأخَّرت رَكَباتُهُ
كانوا وقوفاً أمسِ تحت ركابه ::: واليوم هُمْ حَوْلَ السَّرير مُشاتُه
ومماليك الآفاق ساعية له ::: فمتى تجيءُ بفَتْحِهنَّ سُعَاتُهُ
هذي مناشيُر الممالك تقتضي ::: توقيعه فيها فأين دَواتُهُ
هذي الجيوش من البلاد تواصَلَت ::: فعلام لا تسمو لها راياته
قد كان وعدُك في الرّبيع بجمعها ::: هذا الربيع وقد دنا ميقاتُه
والجُندُ في الديوان جُدِّدَ عَرْضُهُ ::: وإذا أمرت تَجَّددت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه ::: عَجَّلْ فقد طَمَحَت إليه عُداتُهُ
والغربُ منتظرٌ طلوعك نحوه ::: حتى نفيءَ إلى هُداك بُغاتُهُ

(1) من أقوى الرجل: إذا نفذ طعامه وفني زاده.

والشَّرق يرجو غَـرْبَ عَزمِـكَ ماضيا ::: في مُلكـه حـتى تطيـع عُصـاتُهُ
مُغْـرىً بإسـداء الجميـل كأنَّمـا ::: فُرِضَـت عليـه كالصَّـلاة وصِـلاتُهُ
هـل للملـوك مَضَـاؤه في مَوقَـفٍ ::: شُـدَّت علـى أعدائـه شَـدَّاتُهُ
وإذا الملـوكُ سَـعَوْا وقصَّـرَ سَـعْيُهُم ::: رَجَحت وقـد نَجَحَـتْ بـه مَسْـعَاتُهُ
كـم جـاءه التّوفيـق في وقعاتـه ::: مـن كـان بـالتوفيق توقيعاتُـهُ[1]

وقال أيضاً:

يـا راعيـا للـدين حـين تمكّنَـتْ ::: منـه الـذّئاب وأسـلمتهُ رُعاتُـهُ
ما كـان ضَـرَّك لـو أقمـت مُراعيـا ::: دينـاً تَـوَلىَّ منُـذ رَحَلْـتَ وُلاتُـهُ
أضجرت مِنَّـا أم أَنفـت فلـم تكـن ::: ممـن تصـابُ لشِّـدةٍ ضَـجَراتُهُ
أرضيت تحت الأرضِ يـا مـن لم تَـزَلْ ::: فـوق السـماء عليّـه درجاتـه
فارقـت مُلكْـا غـيرَ بـاق مُتْعبـا ::: ووَصـلت مُلْكـا باقيـا راحاتُـهُ
أعزز على عيني برؤيـة بهجـة الـدنيا ::: ووجهـك لا تُـرى بهجاتُـهُ
أبـني صـلاح الـديِّن إنَّ أبـاكُم ::: مـا زال يـأبى مـا الكِـرامُ أباتُـهُ
لا تقتـدوا إلا بسُـنَّةِ فضـلهِ ::: لتطيـب مـن مهـد النَّعـيم سِـنَاتُهُ
وَرِدُوا مـوارد عدلـه وسماحِـهِ ::: لِتُـرَدَّ عـن نهـج الشَّـمَاتِ شُـمَاتُهُ
ولئن هـوى جبـلٌ لقـد بنيـت لنـا ::: ببنيـه مـن هَضَـبَاتِهِ ذُرَوَاتُـهُ
وبفضـل أفضـل وعـزِّ عزيـزه ::: وظهـور ظـاهره لنـا سَـرَواتُهُ
الأفضل الملكُ الذي ظَهَرت على الـدنيا ::: بزهـر جلالـه جَلَواتُـهُ
والـدين بالملـك العزيـز عِمَـادُه ::: عثمـان حاليـة لنـا حالاتـه
والمَلْك غازي الظَّـاهرِ العـالي الـذي ::: صَـحَّت لإظهـار الُعلَـى مغزاتُـهُ
ولنـا بسـيف الـدِّين أظهـرُ نصـرةٍ ::: بالعـادل الملـك المُطَهَّـرِ ذاتـه[2]

وقال أيضاً:

من للعُلا مـن للـذّرى مـن للهُـدى ::: يحميـه مَـنْ للبـأس مـن للنائـل
طلـب البقـاء لملكـه مـن آجـل ::: إذ لم يثـق ببقـاء مُلـك العاجـل
بحـرٌ أعـاد البَـرَّ بحـراً بـرُّه ::: وبسـيفه فتحـت بـلاد السـاحل
مَـنْ كـان أهـلُ الحَـقِّ في أيامـه ::: وبعـزَّه يُـرْدُون أهـل الباطـل
وفتوحُـهُ والقُـدسُ مـن أبكارَهـا ::: أبقـت لـه فضـلاً بغـير مساجل
مـا كنـت أستسـقي لقـبرك وابـلاً ::: ورأيـتُ جُـوْدَكَ مُخْجـلاً للوابـل

(1) كتاب الروضتين (373/4).
(2) كتاب الروضتين (374/4).

فَسَـــقاك رِضـــوانٌ الإلـــه لأنـــني ::: لا أتقـــي سُـــقيا الغَمَـــام الهاطـــل[1]

لقد تأثر الناس بوفاة صلاح الدين حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا على صلاح الدين وأشادوا بعدله وبقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة، وأما مكانة صلاح الدين فستظل عظيمة أبد الدهر، إذ يكفى ما قام به في سبيل توحيد صفوف المسلمين والدفاع عن كيانهم، ثم مواصلة الجهاد في صورة لا تعرف الملك لطرد الغزاة الدخلاء [2]. ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان لـه حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلاته، ولا كان لـه اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة [3]، ولا شك أن وفاة صلاح الدين جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة، إذ أنذرت هذه الوفاة بقيام المنازعات بين أبناء البيت الأيوبي والذي سنتحدث عنه تفصيلاً بإذن الله تعالى في كتابنا الرابع من سلسلة موسوعة الحروب الصليبية والذي عنوانه: (الأيوبيون بعد وفاة صلاح الدين).

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الثلاثاء الساعة الثالثة فجراً بتاريخ 1428/05/05هـ - 2007/05/22م والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، قال تعالى:**{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}** (فاطر، آية: 2).

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فلله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفق فله الحمد على ما منّ به عليّ أولا وآخراً وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه قال تعالى:**{رَبِّ أَوْزِعْنِي**

---

(1) المصدر نفسه (374/4).
(2) الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص 718.
(3) النوادر السلطانية ص 43 - 44، الحركة الصليبية - عاشور ص 718.

أَنْ أَشْكُرَ نعْمَتَكَ الَتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} (النمل، آية: 19).

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى:{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَاننَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحشر، آية: 210).

وبقول الشاعر ابن الورديّ لابنه:

اطلبُ العلم ولا تكسل فما ::: أبعد الخير على أهل الكسل
احتفل للفقه في الدِّين ولا ::: تشتغل عنه بمال وَخَوَلْ
واهجر النوم وحصله فمن ::: يعرف المطلوب يَحْقِر ما بَذَل
لا تَقُل قد ذهبت أربابُه ::: كلُّ من سار على الدَّرْب وَصَلْ

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك، وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه.

علي محمد محمد الصَّلاَّبيِّ

غفر الله لـه ولوالديه ولجميع المسلمين

الإخوة الكرام يسرني أن تصل ملاحظتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب، وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mai: abumohamed2@maktoob.com

* * * * *